من أدب الدّعوة الإسلاميّة

٣

مبادئ

في الأدب والدّعوة

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق - بيروت


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

من أدب الدعوة الإسلامية

٣

مبادئ في الأدب والدعوة

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٢ م — ١٤٠٢ هـ

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٢٣ : - هاتف ٢٢٩١٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد لله منزِّلِ أعظم البيان في القرآن، كتابه المعجز للإنس والجان، ولو اجتمعوا للإتيان بمثله وكان بعضهم لبعض ظَهيراً.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم أنبياء الله ورسله، أفصحِ الناس لساناً، وأعظمِهم بياناً، وأرفعهم أدباً.

والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين، الذين آتاهم الله من البيان البليغ الحكيم في مختلف فنون القول ما حقّقوا به الحجّة الدامغة على أقوامهم. فقطعوا بذلك أعذارهم، فلم يبقَ لهم عذر يعتذرون به في رفضهم الاستجابة لنداء الدعوة إلى الله وإلى تطبيق شريعته لعباده.

وبعد: فهذا بحث أعددته بعنوان «مبادىء في الأدب والدعوة» للنَّدْوة العالميّة للأدب الاسلامي، التي انعقدت في أواسط شهر جمادى الثانية من سنة ١٤٠١ هجرية، والتي نظَّمتها دار العلوم لندوة العلماء في مدينة لكنهؤ - بالهند، ودعا إليها رئيس النَّدْوة الإمام العلاّمة الداعية الاسلامي الكبير سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدْوي، أمدّ الله بعمره، وجزاه عن الاسلام والمسلمين واللغة العربية وآدابها خير الجزاء، فقد كان أوّل المهتمين في هذا العصر بقضية الأدب الاسلامي، والدعوة إلى العناية به، وتأصيله، وتقعيد قواعده.

وبتوفيق الله وتسهيله وبصحبة الأخ «الدكتور محمد صالح جمال بدوي» حضرنا هذه الندوة ممثِّلَيْنِ لجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

وقد مَنَّ الله على هذه النَّدْوة بالنجاح الباهر، بسرّ إخلاص الداعي إليها، وإخلاص إخوانه المؤمنين العاملين في الهند، واهتمام الأعضاء المشاركين فيها وإخلاصهم.

وإذْ أكرمني الله بالمشاركة في أعمال هذه الندوة فإنه لم يُتح لي إلاّ أن أقدّم موجزاً لَمَسَ عناوين هذا البحث الذي أعددته لها، وطلب مني كثير من أعضاء النَّدْوة طباعته كاملاً في كتاب، فوعدت بذلك.

وإنّي إذْ أقدمه لقرّاء العربية أسأل الله أن ينفع به، ويضاعف عليه المثوبة، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

مكة المكرمة

في ٢٢/ جمادى الثانية/ ١٤٠١ هجرية

و ٢٦ ـ نيسان ـ ١٩٨١ م

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

مُقـدِّمَات

(١)
تعريف بالأدب الاسلامي

الأدب الإِسلامي هو التعبير بأي فنّ من فنون الكلام الجميل المؤثر بشرط أن يكون ذا مضمون لا يتنافى مع ما أمر به الإِسلام، أو نهى عنه، أو أذن به.

فالكلام هو بحدّ ذاته وسيلة حياديّة على اختلاف فنونه النَّثْرية والشعرية وما بينهما، وهذه الفنون تشمل: القصّة، والحوار، والتمثيليّات، والجدال، والترسّل، والسَّجْع، وأساليب القول التعليمية والتقنينية، والتعليقات، والتوقيعات، والبيانات الإِقناعية، والسؤال والجواب، والخطابة، والمحاضرة، والدَّرس، والمحادثة، والنِّكات، والمضحكات، والمزاح، والمدح، والهجاء، والتقريعات، والشتائم، والاستجداء، والدُّعاء، إلى غير ذلك من فنون.

والوسائل الحياديّة إن استعملت في الخير كانت خيراً، وإن استعملت في الشرّ كانت شرّاً، وإن استعملت في أمرٍ مباح كانت مباحة.

ولمّا كان الكلام بحدّ ذاته وسيلة حياديّة، فهو كسائر الوسائل الحياديّة انما يحكم عليه من خلال مضامينه الفكرية وغاياته وأهدافه وما يؤدّي إليه.

لذلك فلا يعتبر الأدب أدباً إسلامياً إذا اشتمل على مضمون يتنافى مع الإِسلام، في عقيدة، أو خلق، أو عمل، أو أي حكم

ثابت من أحكامه، ولو صدر هذا الأدب من مسلم.

ولا يعتبر الأدب أدباً إسلامياً إذا كانت غاياته وأهدافه ممّا لا يأذن بها الإسلام، أو كان يؤدّي ولو على سبيل الدَّفع الضمني إلى ما لا يأذن به الإسلام.

وأمّا ما عدا ذلك فله في سماحة الإسلام وسعته مكان رحب.

والأدب ـ كما يأتي تفصيله ـ هو في معظم فنونه زينة الكلام، والزينة من الجمال، والجمال مظهر من مظاهر سنّة الله في خلقه، وفي بياناته لعباده، وهو ذو تأثير فعّالٍ في النفوس الإنسانية، تأنس به، وتحبّه، وقد تعشقه وتشتاق إليه.

فاستخدام الأدب وسيلة لإبلاغ الحق، أو للإقناع به، أو للتوجيه لفضيلة خلقية أو عملية، أو للتعليم والتربية، أو للقِرَاع والكفاح الخيِّرَين، أو لإثارة الحماسة والتحريض على البطولات والجود بالأنفس والأموال في سبيل الله، أو نحو ذلك، انسجام انسانيٌّ مع سنة الله في خلقه، واقتداء بمنهج القرآن العظيم، وبمنهج الرسول محمد ﷺ، وبمنهج سائر الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، في الدعوة، والتربية، والتعليم، وسائر مجالات القول.

(٢)
واجب المسلمين تجاه الأدب

فلا يجوز للمسلمين المعاصرين أن يتركوا ساحة الأدب لدعاة الشرّ والفتنة في الدين، ولناشري الرذيلة، يبثُّون عن طريق فنون الأدب المختلفة الإلحاد وسائر المذاهب الفكرية والاجتماعية المنحرفة الهدّامة، وينشرون الرذيلة، ويشيعون الفاحشة بعرضها

بأدقّ تفاصيلها عرضاً أدبياً مغرياً بالإثم والإباحيّة المنكرة.

إنّ على المسلمين المعاصرين أن يحتلّوا ساحة الأدب الرفيع ضمن المنهج الإسلامي، وأن يتأسَّوْا بما كان عليه أسلافهم الصالحون، ويواجهوا أسلحة أعداء الإسلام في هذا المجال بما يفلُّ حدَّها، ويعزلها أو يضعف تأثيراتها، وأن يقدّموا لأجيال الأمة الإسلامية البديل الصالح النافع الذي يوجّه للخير في أهدافه السامية، مع إرضائه لأهواء النفوس المحبّة للجمال الأدبي، وأن يقدّموا أيضاً ألواناً من متعة هذا الجمال ضمن دوائر المباحات التي لا شرّ فيها ولا إثم.

(٣)
الالتزام في الأدب

ونتساءل بعد هذا: هل يوجد أدب غير ملتزم؟.

ولدى التحليل يصعب علينا أن نتصوّر أدباً غير ملتزم. إنّ كلّ أدب هو ذو مضمون، وهذا المضمون له في الإسلام حكم من الأحكام الخمسة.

فأمّا المضمون الذي منع منه الإسلام وحرّمه، فهو شرٌّ لا محالة، وقصدُه التزام بالشرّ.

وأمّا المضمون الذي أمر به الإسلام أو أذن به، فهو إمّا خيرٌ وقصده التزام بالخير، وإمّا مباح لا شرّ فيه وسماحة الإسلام تتسع له.

والذين يدّعون أنهم غير ملتزمين في الأدب لمذهب من المذاهب الفكرية أو الاجتماعية، ثمّ يطلقون العِنان لأدبهم كي ينطلق في كلّ ميدان من ميادين الفكر بلا حدود، لا بدّ أن يشتمل أدبهم على جوانب فيها شرٌّ وإثم، وهذه الجوانب من شأنها أن ترضي أهواءهم وشهوات نفوسهم

الجانحة، وتواكب مسيرة دعاة الشرّ والضلال في الأرض، وهذا نفسُه التزام ضمني باستباحة الشرّ والإثم والضلال في الأرض.

فأيُّ معنى لدعوَى عدم الالتزام في الأدب، ولدعاوي البحث عن الجمال للجمال، والفنّ للفنّ، والأدب للأدب؟!

إنّها في تقديري حيلة من حيل الملتزمين برفض الالتزام بالفضيلة أو بما تأذن به الفضيلة، وهي بُرقُعٌ لستر الالتزام بالرذيلة وبما تدعو إليه الرذيلة.

إنهما لدى التحقيق منهجان: منهج رُشْد وما يلحق به، ومنهج غيٍّ وما يلحق به، ولا وسط بينهما.

وذريعة مزاعم الأدب غير الملتزم ترجع إلى مقتضيات الصدق الفنيّ في الأدب.

والصدق الفني في الأدب يقوم على المطابقة بين الكلمة المعبّرة وبين الحالة النفسية في الشعور الداخلي.

ولتوضيح زيف هذه الذريعة أقول: إنّ كلّ أديب يملك القدرة على أن يقدّم فنًّا صادقاً، إنّما يعبّر عن تجربته الشعورية حقاً، لكنّ التجارب الشعورية للناس لا يصحّ أن تهتك أستارها جميعاً، وتعرض على الآخرين عارية العورات.

إنّ الجمال بحدّ ذاته قد يكون مقروناً وملتبساً بالفضيلة، وقد يكون مقروناً وملتبساً بالرذيلة. وحين يكف الأديب الفاضل عن التعبير عن الجمال الملتبس بالرذيلة يجد لنفسه مجالات كثيرة أخرى لا إثم فيها يُعبّر فيها عن ألوان كثيرة من الجمال، وعن تجاربه الشعورية العميقة فيها، ويقدّم من ذلك أدباً رفيعاً جميلاً.

إنّ تتبّع الجمال وحده دون احتراس من السقوط في الرذيلة يجعل المتتبِّعين يسمحون بكشف كلّ عورة جميلة، وممارسة كلّ رذيلة تهواها

النفوس أمام أسماع الناس وأبصارهم، وليس الأدب وحده هو المجال الفريد الذي تطرح فيه هذه القضية، إنّ نظير ذلك موجود في كلّ لذات الحياة ومتعها، وفي كلّ مرضيات أهواء النفوس، وشهوائها، ورغائبها، ونزعاتها، ونزغاتها، ونزواتها.

لكن المفروض في الإنسان السويّ الواعي أن يكون له انتماء فكري عَقَديّ ومذهب في السلوك، وهذا الانتماء يقتضي منه سلوكاً معيّناً ملائماً للعناصر التي آمن بها.

وإذْ لم يجعل الخالق الحكيم لرجل من قلبَينْ في جوفه، فإنَّـه لا تناقض في الانتماءات الإرادية الواعية لدى الانسان السويّ.

وعلى هذا فالأصل في الأديب أن ينسجم الصدق الفنّي لديه مع مقتضيات انتمائه الإرادي الصحيح.

ولا يختل هذا الانسجام إلّا بسبب من الأسباب، وهي ترجع إلى تحوّل في الانتماء، أو ضعف في الإرادة تجاه قاسرة من قواسر الهوى أو الشهوة أو العاطفة أو العادة المستحكمة أو ضغط المجتمع، وهذا الضعف يجرّ إلى المعصية في السلوك مع صحة الانتماء الْعَقَدِيّ.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الاول

الحَاجَة إلىٰ الأدَب في مَجالاَتِ الدّعوَة

(١)

إنَّ مفتاح استخدام الأدب في الدعوة إلى الله وإلى التزام شريعته نجده في البيان القرآني المعجز، وفي الأدب الرفيع الرائع الذي نلاحظه في أقوال الرسول محمد ﷺ، وفي آداب سائر الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

١ - أما البيان القرآني المعجز فقد كان المنبع الثرّ الذي تأصَّلت على فنون أدبه علوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع) وكان الشمس التي اقتبس من أنوارها مقتبسو فنون الآداب الرفيعة في اللّسان العربي، ومن تأثر باللغة العربية بعد ذلك من الناطقين باللغات الأخرى.

إنّ أعلى أدباء العربية كَعْباً في سبك الجمل وتقسيمها ورصفها واختيار الكلمات في مواطنها هم المنتفعون بما في القرآن من سبك وتقسيم ورصف وانتقاء بديع للكلمات بحسب مواضعها.

وإن المستخدمين للأمثال والتشبيهات والاستعارات الرفيعة الرشيقة الحلوة بإتقان وإبداع هم تلاميذ مدرسة الأمثال والتشبيهات والاستعارات القرآنية.

وإن المنتفعين بأساليب الحوار والجدال القرآنية هم أكثر أهل

الحوار والجدال أدباً رفيعاً، وحسّاً مرهفاً في تصيّد أساليب الإقناع، وطرائق إقامة الحجج الدامغة، ومعرفة أحكم الكلام وأقرب السبل للوصول إلى محاصرة الفكر والنفس وأعمق المشاعر لدى من يوجه لهم الخطاب بحسب أحوالهم.

وهكذا إلى سائر فنون الأدب وفنون القول، باستثناء الشعر القائم على الوزن والقافية، الذي ابتعد عنه القرآن عمداً، نظراً إلى أحوال معظم الشعراء الذين يهيمون في كلّ وادٍ، ونظراً إلى تصوّرات الناس السائدة للشعراء، والقائمة على أن للشعراء شياطين يوحون لهم بشعرهم.

وفي مجال الحديث عن إعجاز القرآن الأدبي والبلاغي وانتفاع معظم الأدباء الناطقين بالعربية منه، نذكر أن أدباء نصارى بلاد الشام حتى أدباء المهجر منهم قد اقتبسوا من القرآن العظيم معظم آدابهم، وأنّ أبرعهم قد كانوا من الذين يحفظون القرآن كله أو بعضه، أو اعتنوا بتذوُّق بلاغته ورفيع آدابه.

٢ ـ وأما روائع أقوال الرسول ﷺ فقد كانت مَعْلَماً عظيماً لكثير من الأدباء عبر تاريخ الأدب العربي، إلى أن استغرب الأدب العربي القومي المعاصر بوافدات الآداب الغربية.

وكان معظم الأدباء والكتاب يزيِّنون كلامهم وجميل آدابهم بفقرات من أقوال الرسول ﷺ، وحظ التزين بها أكبر من حظ كل المختارات الأخرى من شعر الناس وأمثالهم السائرة وحكمهم المأثورة المتوارثة.

٣ ـ وفيما أثر عن الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم ممّا لم يدخله التحريف وتفسده الترجمات، يلاحظ المتتبع آداباً رفيعة كانت قمّة البيان في عصورهم.

إن في بعض مزامير داود عليه السلام التي نقرأها في كتب أهل الكتاب ما يدل على أن أصولها قد كانت أدباً رفيعاً من الترانيم والدعاء والصلوات وأنواع التسبيح والمناجاة لله تعالى.

وإن في حِكَم عيسى عليه السلام وأمثاله التي كان يضربها للناس آداباً رفيعةً أيضاً، وكانت أمثاله عليه السلام ذاتَ تأثير عظيم في الناس.

وشعيبٌ عليه السلام كان ذا بيان بارع وأدب خطابي رفيع، حتى اشتهر بأنه خطيب الأنبياء.

وإبراهيم عليه السلام قد آتاه الله بيان الحجّة، وأدبها الرفيع، والقدرة على المناظرة، والبراعة في الجدال، حتى قال تعالى في شأنه في سورة (الأنعام ٦).

﴿ وتلك حجَّتُنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء، إنّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ(٨٣) ﴾.

فهذا يدل على أن الله قد آتى إبراهيم عليه السلام بيان الحجّة الربّانية وما يتطلبه هذا البيان من أدب رفيع مؤثِّر، ويدلّ على أن هذا النوع من الأدب البياني هِبَةٌ ربّانية رفيعة الدرجة بين الهِبَات ﴿ نرفعُ درجاتٍ من نشاء ﴾.

ونوحُ عليه السلام قد آتاه الله بياناً رفيعاً، وقدرة عظيمة في أدب الجدال الحكيم، حتى أعجز قومه في هذا المجال، فقالوا كما أخبرنا الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ يا نوحُ قد جادلَتنا فأكثرتَ جدالَنا فأتِنا بما تعدُنا إن كنت من الصادقين (٣٢) قال: إنمَّا يأتيكم به اللّهُ إن شاء، وما أنتم بمُعْجِزين (٣٣) ﴾.

وموسى عليه السلام طلب من ربه أن يحلّ عقدة من لسانه

لِيَفْقَه قومُه قولَه، وطلب أن يرسل معه أخاه هارون وزيراً له في دعوته، وقال: هو أفصح مني لساناً.

وقد قصّ الله علينا ذلك في سورة (طه ٢٠) فقال تعالى حكاية لقول موسى:

﴿ قال: ربّ اشرحْ لي صدري (٢٥) ويسّر لي أمري (٢٦) واحْلُلْ عُقْدةً من لساني (٢٧) يَفْقَهوا قولي (٢٨) واجعل لي وزيراً من أهلي (٢٩) هارونَ أخي (٣٠) اشْدُدْ به أزري (٣١) وأَشرِكْه في أمري (٣٢) ﴾.

وقال تعالى أيضاً في حكاية قول موسى في سورة (القصص ٢٨): ﴿ قال: ربّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هارون هو أَفصحُ مني لساناً فأرسله معي رِدْءاً يصدِّقُني إني أخاف أن يكذِّبون (٣٤) ﴾.

أمثلة من آداب الرسل البيانية:

ويطيب لي أن أعرض هنا نموذجين من آداب الرسل البيانية عليهم الصلاة والسلام:

الأول: من أقوال الرسول محمد ﷺ، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيّبة قَبلت الماء فأنبتَتِ الكلأ والعشبَ الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس فشربوا منها وسَقَوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قِيعَان، لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفعْ بذلك رأساً ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم.

الثاني: من أمثال عيسى عليه السلام، إذ ضرب مثلاً مشابهاً، فيما يروي «لوقا» في الإصحاح الثامن:

ضرب عيسى عليه السلام مثلاً لهداية الربِّ بزرعِ الزّارع، فقسْمٌ منه سقط على الطريق فلم ينبت إذْ داسه الناسَ وأكلته الطيور. وقسم آخرُ منه سقط على صخر، فلمّا نبتَ في التراب القليل الذي عليه مع شيء من الرطوبة أسرع إلى الجفاف لأن الصخر غير صالح للنبات. وقسم ثالث منه سقط في وسط الشوك فنبت ونبت معه الشوك، ولكن الشوك غلبه فخنقه. وقسم رابع منه سقط في أرض صالحة، فنبت نباتاً حسناً وأعطى ثمراً مئة ضعف.

ثم شرح عيسى عليه السلام لتلاميذه هذا المثل، فأبان لهم أن الزَّرع هو كلام الله، وأن الذي سقط على الطريق منه هو الذي يسمعه قوم فيأتي الشيطان فينتزعه بوساوسه من قلوبهم لئلا يؤمنوا. وأنّ الذي سقط على الصخر منه هو الذي يسمعه قوم ويقبلونه أولاً ثم يرتدون عنه، لأن نفوسهم قاسية متى وضعت موضع الامتحان العملي لاكتشاف نتيجة الاستجابة الأولى لديهم رفضوا الطاعة، ونَقَضوا إيمانهم. وأنّ الذي سقط بين الشوك هو الذي يسمعه قوم ويقبلونه وينبت نباته فيهم، لكن أهواء نفوسهم وشهواتها ولذات الحياة تتغلب على مطالب إيمانهم من الأعمال فتخنقها وتقتلها، ولا تسمح لها بالحياة. وأنّ الذي سقط في الأرض الصالحة الجيِّدة هو الذي يسمعه قوم صالحون صابرون فيحفظونه ويعملون بمقتضاه.

ومن روائع أدب عيسى عليه السلام قوله كما يروي «لوقا» في الإصحاح التاسع:

«ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها» **٢٦/ ٩** لوقا.

(٢)

المطلوب من الدعاة الى الله

فالمطلوب من الدعاة إلى الله أن يتذوّقوا الأدب، ويعـرفوا أصوله وقواعده، ويطّلعوا على أساليبه وفنـونه، ويتـدرّبوا عليهـا، ويمارسوها في مجالات الدعوة ضمن المأذون به شرعاً، ليكـون تأثيرهم في جماهير الناس أعمق وأوسع، مع ما يشتمل عليه أدبهم من حقٍ وإقناعات منطقية مغلَّفة بزينات فكريّة أدبية ولمسات عاطفية مؤثّرة حلوة.

إن الأدب وسيلة ذات جـدوىٰ مؤكـدة في نفـوس النـاس وأفكارهم وقلوبهم، وهو من الحكمة والموعظة الحسنة اللّتين أمر الله بهما في قوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إنّ ربَّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) ﴾.

إن الحكمة بمعناها العام تقتضي وضع الأشياء في مواضعها، وإن أرفع البلاغة وأسمَى الأدب البياني لا يتحققان إلا بمطابقـة الكلام لمقتضَى حال من يُوجَّه له، وإنّ الموعظة الحسنة كثيراً ما يكون الأدب أحد العناصر التي أكسبها الحسن، أو أجلّها وأعظمها.

فالكلام البليغ وفنون الأدب الـرفيع من الحكمـة المطلوبـة بالنص القرآني لدى الدعوة إلى سبيل الله، يطالب كلُّ إنسان بها على قدر مستطاعه.

والموعظة الحسنة لا تتحقق في معظم أحـوالها إلاّ مقتـرنة بأدب بياني حسن مؤثِّر يناسب حال من توجّه له الموعظة.

فهذا النص القرآني يدل على وجوب استخدام الأدب وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله.

والأصل في كلّ أَتْباع محمد الذين آمنوا برسالته واتبعوه أن يكونوا دعاة إلى الله، كلٌّ منهم بحسب موقعه وعلى مقدار علمه، يدل على هذا قول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في أواخر سورة (يوسف ١٢):

﴿قل: هذه سبيلي: أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعَنِي، وسبحان الله، وما أنا من المشركين (١٠٨)﴾.

فسبيل الرسول ومن اتَّبعه تتلخص بثلاثة عناصر:

العنصر الأول: الدعوة إلى الله على بصيرة، والبصيرة في هذا المجال تشمل المضمون وأسلوب البيان قولاً وعملاً. والبصيرة في أسلوب البيان تستوجب اتخاذ الأدب وسيلة للتأثير.

العنصر الثاني: تنزيه الله، وقد دلَّ عليه في النص «وسبحان الله».

العنصر الثالث: إعلان التبرؤ من الشرك كله، في الاعتقاد، والقول والإرادة والعمل، وقد دلَّ عليه في النص: ﴿وما أنا من المشركين﴾.

هذه هي سبيل الرسول ومن اتَّبعهُ مخلصاً صادقاً.

لذلك يجب على الدعاة المتخصصين في الدعوة والمتفرغين لها، والمضطلعين بالمهمة التي أمر الله بها في قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَلْتَكُنْ منكم أمةٌ يدعُون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١٠٤)﴾

يجب عليهم أن لا يستهينوا بأمر اتخاذ الأدب وسيلة من

وسائل الدعوة إلى الله، ويجب عليهم أن لا يَدَعو الساحة الإنسانية لدعاة الشر والفتنة والفساد في الأرض، يستخدمون فيها الأدب على اختلاف فنونه النثرية والشعرية، بما في ذلك القصة والحوار والتمثيليات، وأدب الجدال والمناقشة.

إنّ ممّا يؤسف له أن يحتل معظم الساحات الأدبية دعاة الشر ومروِّجو الفتنة والفساد في الأرض، لإفساد الناس وإضلالهم ونشر الإلحاد والكفر والفواحش بينهم، وهم يحملون شعار الأدب للأدب والفن للفن، مع أن أدبهم وفنَّهم الذي يزعمون أنه متجرد إنما هو أدب وفن ملتزم مُوَجَّه يحمل شعار التجرد، ولكن التزامه إلحادي أو إباحي أو فوضوي أو عنصري أو أي مبدأ من المبادىء المنافية للحق والخير والفضيلة، وهو مسخَّر وموجّه لتحقيق أهداف معينة، ويتلاعبون في المصطلحات فيجعلون الأدب الملتزم في معظم أقوالهم هو الأدب الديني أو الأخلاقي، ويجعلون الأدب الآخر هو الأدب غير الملتزم، ويكتمون التزامه اللاأخلاقي.

وننبِّه هنا على أن اليهودي الصهيوني «جان بول سارتر» قد استخدم قصصه وتمثيلياته وما برع فيه من فنون أدبية لبثِّ الإلحاد ضمن فلسفته الوجودية الملحدة، مع ما فيها من تفاهة فكرية ومتناقضات وسبح في عالم «اللامعقول»، فأثّر في جماهير الشباب والمراهقين من مختلف الشعوب أيّما أثر.

ونظيره كثيرون، وقد جنّد المفسدون في الأرض كتّاباً كثيرين لملء برامج الإذاعة والتلفزيون وصفحات الدوريات بهذا الأدب غير الأخلاقي بغية نشر الإباحية والأفكار والمذاهب الهدّامة.

الفصل الثاني

الأدبُ زينةُ الكلام

(١)

كل من عرف الأدب وفنونه وتذوقه حقاً وضح له أن الأدب هو الزينة في الكلام للمقاصد أو المطالب الأساسية منه. فبالأدب تزيّن الهياكل اللفظية الدَّالّة في المصطلحات اللُّغوية على الفكرة. وبالأدب تُزيَّنُ بعضُ الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرى، لتُقْبَل وتُستاغ وتُهضم، أو لتكون أكثر قبولاً واستساغة وهضماً.

إن المقاصد أو المطالب الأساسية قد تكون في بعض أحوالها جافَّة أو قاسية أو مُرَّة أو ثقيلَةً على النفوس ذاتَ أعباء، لذلك كان لا بُدَّ لها من أغلفة تشتهيها النفوس، وتهفو إليها الطِّباع، حتى تكون مُزَيَّنَة لديها، أو مقبولةً لديها إجمالاً.

وللظفر بالاستمتاع بالزينة يَبتلِعُ الناس ما في داخل الأغلفة، فتتحقّق بذلك المطالب والمقاصد.

وقد أحكم الخالق العليم مزْجَ الأشياء والأعمال المقصودة بزينتها فيما خلق ونظَّم ورتَّب وقدّر، حتى لا يفصلَ الناسُ بين الزينة وبين المقاصد أو المطالب الأساسية من الأشياء المزيَّنة، أو حتى يصعب عليهم هذا الفصل، فبِتَناوُل الأشياء أو ممارسة الأعمال للاستمتاع بزينتها المشتهاة المحبوبة تتحقق المقاصد أو المطالب الأساسية.

هذه ظاهرة شاملة وعامَّة من ظواهر الخلق، وظواهر سنَّة الله في عباده، وتنسحب هذه الظاهرة على ما أنزل الله من نصوص لبيان أصول الدين والدعوة إليها، وإقامة الحجج والبراهين عليها، وما أنزل من نصوص تشريعية، وبيانات تكليفية، وتوجيهات تربوية، وتنسحب هذه الظاهرة أيضاً على كل وسائل التربية والتعليم الربانيّة وعلى الوصايا للأنبياء والرسل والدعاة في مجال الدعوة والتربية والتعليم.

وحين تكون الزينة مقترنةً بالتعبيرات اللغوية عن المقاصد أو المطالب الأساسية فإنَّنا نسمِّيها أدباً، سواء أكانت هذه الزينة من قبيل الحُلَلِ اللفظية وحلياتِها، أو من قبيل الحُلَل الفكرية والأساليب البيانية المعنوية وحِلْياتها.

(٢)

١ ـ إنّ الحاجة الأساسية للمحافظة على استمرار الحياة في الأجساد الحيَّة توفي بها حفنة يومية من أخلاطٍ من عناصر نجدها في نحو ملعقة من التراب مع مقدارٍ ما من الماء.

ولقد كان من الممكن ربط بقاء الحياة بابتلاع هذه الحفنة من تراب الأرض، مع جرعات من الماء ممتزجة بها أو تابعة لها، ولكن لو كان الأمر كذلك لما كان للحياة لذّة ولا طعم بحسب نظام الأجساد الحية وما لها من شهوات، ولتوقفت أعمال كثيرة يقوم بها الناس لتحضير طعامهم وشرابهم، ولأقفل بذلك باب ميدانٍ واسعٍ جدّاً من ميادين امتحان الناس وابتلائهم في ظروف هذه الحياة الدنيا.

فاقتضت حكمة الله العليم الحكيم ربط استمرار الحياة بصنوف المطاعم والمشارب، وزيَّنها بطعومها وروائحها وألوانها

وملامسها، ولاءَم بينها ·وبين قسم من شَهوات النفـوسِ وأعصاب الحسّ في الأحياء.

فحين نأكل طبقاً شهيّاً من يدِ طبَّاخ ماهر، أو وجْبَةً لذيذة من ثمـرات نبات الأرض، ونستمتـع بلذات المآكـل والمشارب فـإن المقصود الأساسي لبقاء الحياة قد لا يتجاوز ملعقةً واحدةً ليست بالكبيرة من عناصر تراب الأرض، ولكنَّها مُزجت بأشياء كثيرة مرافقة لها مما هـو مزيِّن لشهـواتنا حتى نستسيـغ ابتلاع ملعقـة التراب داخلها، ونظَّم الفاطر الحكيم أجسادنا بطريقة لا تستـطيع معهـا الانتفاع المناسب من حفنة التراب المطلوبة إلا إذا كانت ممتزجة بأخلاطها الأخرى النباتية والحيوانية.

٢ ـ وإنّ الغرض الأساسي من تجاذب الزوجين في الأحياء، ومن حبّ البنين والذرّية هو المحافظة على بقاء النوع عن طريق التكاثر والتناسل المتتابع عبر القرون، حتى تنتهي دورة هذه الحياة الدنيا.

وقد كان من الممكن أن يتحقق هذا الغرض الأساسي بأيَّة وسيلة باردة جـافة ليس فيها ودّ ولا رحمة، ولا علاقات اجتماعية، ولا عواطف أبوّة وأمومة.

ولكن لو كان الأمر كذلـك لما كـان للحياة لـذّة ولا طعم بحسب نظام الأجساد الحيّة، ولأعرض الذكور عن الإناث، ولنفر أكثر الناس من الاندماج في وشائج اجتماعية، ولآثروا التخفّف من الأعباء الأسريّة ونحوها، فلا يتحمل رجلٌ أعباء زوجة ولا ولد، ولأقفل بذلك باب ميدان واسع جـدّاً من ميادين امتحـان الناس وابتلائهم في ظروف هذه الحياة الدنيا.

فاقتضت حكمة البـارىء العليم الحكيم ربط استمرار بقـاء

الأنواع الحيّة بحب الشهوات من النساء والبنين، وزُيِّن ذلك للناس.

فكانت هذه الشهوات والمشاعر العاطفيّة الحلوة بمثابة أغلفة يبتلع بها الناس ما تستبطنه وتستتبعه من متاعب وهموم وأعباء ثقال، فيحمل الناس أعباءهم ويؤدُّون أعمالهم الشاقة، ويتحمّلون متاعبهم وآلامهم بلذّة، ويشعرون بأن ما يصيبونه أو يطمعون بالحصول عليه منها ثواب مجزىء لما يبذلونه من جهد، وما يحملونه من أعباء وما يتحملونه من آلام ومتاعب.

٣ ـ ونظير ذلك سائر مزيّنات الحياة الدنيا.

(٣)

فمن بديع حكمة الله في خلقه أنه أَلْبَسَ مطالب الحياة أثواب مطالب الشهوات، لتكون هذه الشهوات بمثابة المحرّض الذاتي على تناول حاجات الجسد، التي تمدّه بالبقاء إلى أمده المقدّر له، أو على ممارسة الغرائز التي تمدّ النوع بالتكاثر والبقاء إلى الأمد المقدر لبقاء النوع، أو لبقاء الحياة على وجه الأرض. أو على السعي لتحقيق حاجات نفسية ترتبط بها مصلحة من المصالح الإنسانية الفردية أو الجماعية.

ومجالات الحياة الجسدية أو النفسية أو الفكرية أو الوجدانية تعرض للإنسان زينتها، لتجذبه إليها، وتحبّبه بها، وبذلك يتم بينها وبين مطالب الحياة علاقة التجاذب.

فحينما تعرض الوردة مثلاً زينتها التي تتمثل بألوانها الزاهية، وعرفها الطيب، وملمسها المخملي، فإنها تقول بلسان حالها للعين الذواقة: هنا يستوقف النظر. وتقول للشمِّ المرهف: من هنا يُستنشق العبير. وتقول للشفاه الناعمة: هنا يحلو المقام. ولولا أن

هذه الحواس تلائمها هذه الخصائص ما انجذبت إليها، ولا هَفَت نحوها، ولا رأت فيها شيئاً من الزينة.

ولقد أبدع القرآن أيّما إبداع إذ اختار لفظ الزينة للتعبير عن الخصائص التي أودعها الله في الأشياء ليكون فيها ملاءمة وجذب للغرائز والطبائع التي فطر الله الأنفس عليها، وتلك نعمة كريمة من نعم الله في الحياة، ولو أن حاجات الحياة مرتبطة بأشياء لا زينة فيها، فلا ملاءمة بينها وبين شهوات الأنفس وغرائزها وطبائعها، لكان السعي لاستمرار الحياة مشكلة قد تستعصي على الحل.

ولست أدري ماذا سيحدث لو كان الطعام مكروهاً في الأنفس غير مشتهىً، مثل الدواء المُرِّ الكريه، ولو كان الشراب مما تعافه الأنفس كالنفط، وكانت بقية حاجات الحياة على هذا الشكل؟.

إنّه من غير شكٍّ سيختار معظم الأحياء الفناء على البقاء، فسبحان من زيَّن لنا حاجات أجسادنا وحاجات نفوسنا حتى نسعى إلى طلبها سعياً ذاتيّاً.

(٤)

وقد ضرب الله أمثلةً للأشياء التي زيَّنها لعباده، مشيراً بذلك إلى أنَّ مَيْل الانسان إليها لا يعتبر نقيصة من نقائصه، بل هو أمر فطريٌّ في أصل تكوينه، ولكنّ الانسان بانحرافه عن منهج الاعتدال الذي رسمه الله له هو الذي يضيف إلى نفسه النقيصة، ويهوي بها إلى دَرَكات الشرّ والإثم، وهذا عمل إرادي من أعماله.

١ ـ فالله تبارك وتعالى جعل ما على الأرض زينةً لها، ليمتحنَ إرادات الناس الموجِّهة لأعمالهم في الحياة الدنيا، وليظهرَ بهذا الامتحان المحسنون بحسب درجات إحسانهم، والمسيئون بحسب دركات إساءاتهم، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيُّهم أحسنُ عملاً (٧) ﴾.

٢ ـ وأبان الله عز وجل أن الزينة من عناصر الحياة الدنيا التي أعدّها لامتحان الناس، فقال تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفّار نباتُه، ثم يهيج فتراهُ مُصْفَرّاً ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ، وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور (٢٠) ﴾.

٣ ـ وذكر الله بتفصيلٍ بعض ما زُيّن للناس في الحياة الدنيا، إذ خصّ بالذكر حب الشهوات من النساء، وحب البنين، وحبّ المال، وحب المراكب الفارهة، وحب الطيبات من المآكل والمشارب.

فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ زُيّن للناسِ حبُّ الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المُسوَّمة، والأنعام، والحرث. ذلك متاعِ الحياة الدنيا، والله عنده حسنُ المآب (١٤) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون (٨) ﴾.

ولعل في قوله تعالى: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ إشارة الى المركَبَات التي أُلهم الله الانسانُ اختراعَها وصنعَها، وإلى ما سيلهمه من ذلك حتى آخر الدهر.

وأفرد سبحانه وتعالى المال والبنين بالذكر، لقوة زينتهما، وتأثيرهما على النفوس، فقال عزّ وجلّ في سورة (الكهف ١٨):

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً (٤٦) ﴾.

استخدام الزينة في أدب البيان:

فإذا كان أمر الوجود كله كذلك فلا غرابة أن ينسجم البيان التعبيري في مجال الدعوة أو التعليم أو التربية ضمن منهج الاسلام مع قاعدة الزينة الشاملة لكل مظاهر الخلق الربّاني فيما نشاهد من مخلوقات.

والمطلوب منا في هذا المجال أن ننسجم مع سنّة الله في خلقه، وأن نطبِّق تعليماته ووصاياه التي نستفيدها من طبائع ما خلق، ونستفيدها من أسلوبه في بياناته الدينية، ونستفيدها أيضاً من وصاياه في توجيهاته لنا بأن ندعو الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٤)

واستنباطا من النصوص القرآنية نستطيع أن نقسم الزينة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الزينة الربانيّة.

القسم الثاني: الزينة الشيطانيّة.

القسم الثالث: الزينة الحياديّة، التي يمكن أن تُستخدم في الخير وطاعة الله تعالى، ويمكن أن تُستخدم في الشر ومعصية الله تعالى.

فإن استخدمت في الخير وطاعة الله ألحقناها بالقسم الأول، فكانت من قبيل الزينة الربّانية.

وإن استخدمت في الشر ومعصية الله تعالى ألحقناها بالقسم الثاني، فكانت من قبيل الزينة الشيطانيّة.

١ ـ فمن أمثلة القسم الأول (الزينة الربّانية) تزيين الإيمان وإرادة الخير وفضائل الأخلاق والعمل الصالح في قلوب المؤمنين. ومن هذا القسم ما جاء في قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿واعلموا أنَّ فيكم رسولَ الله، لو يطيعُكم في كثير من الأمر لَعَنِتُّمْ، ولكن الله حَبَّب إليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعِصْيان، أولئك هم الراشدون (٧) فضلاً من الله ونعمةً واللهُ عليمٌ حكيمٌ(٨)﴾.

فتزيين الايمان في قلوب المؤمنين من قسم الزينة الربَّانية المحضة.

٢ ـ ومن أمثلة القسم الثاني (الزينة الشيطانية) تزيين الأعمال السيئة للكافرين والعُصاة، كتزيين الشيطان لهم قتالَ المسلمين، وشربَ الخمور، وظلمَ عباد الله، وحبَّ المعاصي والمخالفات، وقتلَ أولادِهم سَفَهاً بغير علم، ونحو ذلك.

ومن هذا القسم ما قصّه الله على رسوله من أحوال الأمم السابقة في سورة (الأنعام ٦) بقوله تعالى:

﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضَّرَّاء لعلّهم يتضرّعون (٤٢) فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرَّعوا، ولكن قَسَتْ قلوبُهم، وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٤٣)﴾.

ومنه ما نزل في شأن الذين خرجوا لقتال المسلمين في بدر من مشركي مكّة، وهو قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وإذْ زيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال: لا غالبَ لكم اليوم

من الناس، وإني جارٌ لكم، فلمَّا تراءت الفئتان، نَكَصَ على عَقِبَيه وقال: إنّي بريء منكم، إني أرى ما لا تَرَون، إنّي أخاف الله، والله شديدُ العقاب (٤٨) ﴾.

وباستطاعتنا أن نفهم من النصوص القرآنية أن الكفر وجحود الحق لا يُزَيَّنُ في قلوب الكافرين بل يَظلُّ حرجاً وقلقاً واضطراباً، إنما الذي يُزَّينُ للكافرين والعصاة أعمالُ السوء، ولوازم الكفر في السلوك النفسي أو الظاهر.

وهذا ما نلاحظ تكرير بيانه في النصوص القرآنية في مختلف المناسبات التي تحدّثت عن الكافرين، كقوله تعالى:

﴿ فزَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم ﴾ **٦٣** النحل **١٦**.
﴿ وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم ﴾ **٢٤** النمل **٢٧**.
﴿ زُيِّن للذين كفروا الحياةُ الدنيا ﴾ **٢١٢** البقرة **٢** أي إيثارها والتعلق بها وبشهواتها.
﴿ كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ **١٢٢** الأنعام **٦**.
﴿ زُيّن لهم سوءُ أعمالهم ﴾ **٣٧** التوبة **٩**.
﴿ كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ **١٢** يونس **١٠**.
﴿ بل زُيّن للذين كفروا مَكْرُهُم ﴾ **٣٣** الرعد **١٣**.
﴿ أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً ﴾ **٨** فاطر **٣٥**.
﴿ كذلك زُيّن لفرعونَ سوءُ عمله ﴾ **٣٧** غافر **٤٠**.

وقد تصل بعض لوازم الكفر في السلوك الى أن تكون مزيّنة في عمق قلوب الكافرين والمنافقين، كما زُيّن في قلوب المنافقين حُبُّ التخلُّص من الرسول والمؤمنين بقتلهم واستئصال شأفتهم يوم خرجوا إلى مكّة معتمرين، ومُنِعوا من دخولها عند الحديبية، وفي ذلك يخاطبهم الله تعالى بقوله في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلبَ الرسول والمؤمنون إلى أهليهم

أبداً، وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم (١٢) ﴾.

أي زُيِّن في قلوبكم حبُّ التخلُّص من الرسول والمؤمنين بقتلهم واستئصال شأفتهم. وهذا من لوازم كفر هؤلاء ونفاقهم.

٣ ـ ومن أمثلة القسم الثالث (الزينة الحياديّة التي يمكن استخدامها في الخير وطاعة الله، ويمكن استخدامها في الشر ومعصية الله) حُبُّ الشهوات من النساء، وحُبُّ البنين، وحُبُّ المال، وحبّ المآكل والمشارب، وحبُّ المراكب، وحبّ الخيل المسوّمة والأنعام والحرث.

فزينة هذه الأشياء إن استخدمت في حدود ما أذن الله دون عدوان ولا ظلم ولا بغي ولا إسراف ولا تبذير ولا تجاوز إلى مواطن الضرر كانت زينة ربانية.

وقد دلّ على أنها تُلحق بالزينة الربّانية ضمن هذه الحدود قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣١) قل: من حَرّم زينةَ اللهِ التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة، كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعلمون (٣٢) قل: إنَّما حرَّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبَغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سُلْطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (٣٣) ﴾.

وان استُخدِمتْ هذه الزينة الحياديّة في غير ما أذن الله وأحل كانت ملحقةً بالزينة الشيطانية.

لذلك جعل الله المبذِّرين إخوانَ الشياطين، والتبذيرُ أهون من معاصي أكلِ أموالِ الناس بالباطل ومن الظلم والعدوان والقتل بغير حق والزنَى ونحو ذلك من آثام.

فاستخدام الزينة الحياديّة في غير ما أذن الله هو من اتّباع خطوات الشيطان الذي يُزَيّن للناس الإِثم والفسوق والعصيان.

ومعظم فنون الأدب وأساليب الكلام هي من قبيل الزينة الحياديّة، إن استخدمت في الحقّ والخير والفضيلة والدعوة الى الله كانت خيراً. وألحقت بِالزينة الربّانية. وإن استخدمت في الباطل والشرّ والرذيلة والدعوة الى الكفر والفسوق والعصيان كانت شرّاً، وألحقت بالزينة الشيطانية.

* * *

فالدُّعاة إلى الله من أهل البصيرة والوعي ملزمون باستخدام الأدب الرفيع في دعوتهم، كما أن الدُّعاة الى الشَّرّ والفتنة والفساد في الأرض، يستخدمون فنون الأدب في الإِضلال والإِفساد ونشر الفواحش في الناس.

لكنَّ أدب الدعاة إلى الله وإلى الحقّ والخير والفضيلة يجري في قنوات الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أَحسن، كما أمر الله بقوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) ﴾.

وهذه القنوات ذات زينة ملحقة بقسم الزينة الربانيّة.

أما أدب المضلِّين والمفسدين في الأرض فإن له مجاري أخرى ذاتَ زينة ملحقة بقسم الزينة الشيطانية، وهي من قبيل زخرف القول الذي يغرّ ويخدع بالكذب والباطل والمغالطات ودغدغة أهواء النفوس وشهواتها، وفي أدب المضلّين المفسدين في

الأرض يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الإنس والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه فذَرْهم وما يفترونَ (١١٢) ولِتَصْغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولِيَرْضَوْه، وليقترفوا ما هم مُقْترفون (١١٣)﴾.

فأدبُ هؤلاء زخرف من القول قائم على الافتراء، وعلى المغالطات التي يقبلها الذين لا يؤمنون بالآخرة، وعلى ما يرضي الأهواء والشهوات ونزغات النفوس، وعلى الإباحية في السلوك دون ضابط من دينٍ ولا من خلق.

فالافتراء فيما يقدِّمون من زخرف القول دلّ عليه قوله تعالى في الآية: ﴿ فذَرْهم وما يفترون ﴾.

والمغالطات التي يشتمل عليها ما يقدِّمون سن زخرف القول فتجعل قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة تصغَى إليه أي تميل إليه دلّ عليها قوله تعالى في الآية: ﴿ ولِتَصْغَىٰ إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أما المؤمنون بالآخرة فإنّ خوفَهم من عقاب الله يوقظ فيهم حسَّ كشف المغالطات.

ومرضيات الأهواء والشهوات ونزغات النفوس التي يشتمل عليها ما يقدِّمون من زخرف القول أشار إليها قوله تعالى في الآية: ﴿ وليرضوه ﴾.

والدعوة الإباحية التي يشتمل عليها ما يقدّمون من زخرف القول، أشار اليها قوله تعالى في الآية: ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون﴾.

هذه المجاري القذرة يستخدمها المضلّون المفسدون في

آدابهم ولا يستخدمها دعاة الحق والخير والفضيلة بحال من الأحوال، إن لهم من الآداب قنوات طاهرات نظيفة المضمون، نظيفةَ الأوعية، نظيفة أساليب التوزيع والعطاء، ينصرون الحق بالحق، ويدعون إلى الحق بالحق والخير.

* * *

فالدعاة فريقان:

الفريق الأول: الله وحزبه، ودعوة هذا الفريق إلى عبادة الله وإلى الجنة دار السلام، وإلى المغفرة والنجاة من عذاب الله، وإلى السعادة الخالدة.

الفريق الثاني: الشيطان وحزبه، ودعوة هذا الفريق إلى عبادة الشيطان بطاعته في وساوسه وتسويلاته، وإلى الكفر بالله أو الإشراك به، وإلى النار وعذاب الله والشقاء الأبدي.

وقد دلّ على هذا التقسيم نصوص قرآنية منها مايلي:

١ ـ قول الله لرسوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿ قل: إنما أُمرتُ أن أعبدَ الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب (٣٦) ﴾ فالله قد أمر رسولَه أن يدعو الناس الى عبادة الله، وهذه هي دعوةُ سائر الرسل.

٢ ـ وحين يدعو الله الناس إلى عبادته فإنما يدعوهم إلى جنته دار السلام، ويدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم، ويدعوهم إلى النجاة من عذاب النار.

قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢٥) ﴾ وقال الله تعالى في معرض الحديث عن المشركين

في سورة (البقرة ٢): ﴿ أولئك يدعون الى النار، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيِّن آياته للناسِ لعلهم يتذكرون (٢٢١) ﴾.

٣ ـ وفي معرض الكلام على جملة من الأمم السابقة قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ قالت رسلهم: أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرض يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجَل مسمّىً (١٠) ﴾.

٤ ـ وقصّ الله علينا مقالة مؤمن آل فرعون لفرعون وملئه، بقوله سورة (غافر ٤٠):

﴿ ويا قوم مالي أدعوكُم إلى النجاةِ وتدعونني إلى النّارِ (٤١) تدعونني لأكفرَ بالله وأُشركَ به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ الغفّارِ (٤٢) لا جرمَ أنّما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة. وأن مردّنا إلى الله، وأنّ المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم، وأفَوِّض أمري إلى الله. إن الله بصيرٌ بالعباد (٤٤) ﴾.

الفصل الثالث

الزّينة من الجمال

(١)

حبُّ الجمال فطرةٌ في النفس الانسانية، فهي بقوة فطرية قاسرة تميل إليه، وتنجذب نحوه، وليس بمستطاع النفوس أن تغيِّر فطرها التي فطرها الباریء المصوِّر عليها.

والجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أن تحس به وتتذوقه متى أدركته، وعندئذٍ تميل إليه وتنجذب نحوه، وتأنس به، وترتاح إليه، وتسعد بالاستمتاع بلذة إحساس المشاعر به ولو تخيُّلاً، ويتفاوت الناس في قدراتهم على تذوّق الجمال والاحساس بدقائقه كشأن تفاوتهم في سائر قدراتهم المادية والمعنوية: مثل القوى الجسمية، وقدرات الذكاء، وقوى الإبصار والسمع والشم والذوق واللّمس.

والجمال يكون في كل المجالات التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة، حتى مجالات الأفكار، والتخيّلات، والوجدانيات، والطباع، والأخلاق، وأنواع السلوك الإرادي النفسي والظاهر.

ففي ساحة المرئيات تشاهد الأبصار مرئيات جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، وتشاهد مرئيات قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتشاهد وسطاً فاتراً

لا يجذب بجمال، ولا ينفِّر بقبحٍ. وفي ساحة الأصوات يسمع السامعون أصواتاً جميلة تتفاوت فيما تحظَى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، ويسمعون أصواتاً قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتسمع أصواتاً فاترة لا تجذب بجمال، ولا تنفر بقبحٍ.

ونظير ذلك في ساحة الروائح، وفي ساحة الطعوم، وفي ساحة الملموسات التي فيها ناعم وخشن، وصلب وليّن، وقاسٍ ولَدْن، وحار وبارد.

وفي المشاعر الوجدانية ندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانية جميلة لذيذة، كمشاعر الحب، ومشاعر الإحساس بفعل الخير، ومشاعر الأبُوَّة والأمومة، والشعور بطمأنينة القلب وبالأمن. وندرك أنَّ لدينا مشاعر وجدانية قبيحة نتألم بها، كالشعور بالذلّة والصَّغار، وكالحقد والحسد. وكالشعور بالخوف والقلق. وندرك أنْ لدينا مشاعر وجدانية فاترة لا تحدث لذة نفسية ولا تحدث ألماً كمشاعر الانتماء إلى أسرة مغمورة ليس لها مجد يُحدث في النفس لذة الافتخار، وليس لها فضائح وقبائح تحدث في النفس ألم الصَّغار.

وفي الساحة الفكرية ندرك أفكاراً جميلة حلوة، وأفكاراً قبيحة مرّة، وأفكاراً فاترة لا تحدث انفعال استحسان ولا انفعال استقباح. إن الفكرة الذكية المبتكرة فكرة جميلة، وان الفكرة الغبية المستنكرة فكرة قبيحة، وان الفكرة العاديّة المكررة دون غرض فني أدبي فكرة فاترة تمرُّ دون أن تثير أيّ انفعال، وكذلك الفكرة الغامضة التي لا يستطيع من تُعرض عليه أن يدركها. ويمرُّ في أذهاننا شريط أفكار طويل فلا يُحدث فينا أيّ انفعال من لذة أو ألم، إنّها أفكار فاترة، وربَّ فكرة تمر فتثير إعجاباً وانفعالاً عظيماً نحوها، وقد تمرُّ فكرة فتتقزّز النفس منها وتصرفها بسرعة وتتجاوزها.

وفي ساحة التخيّل تمر أخيلة جميلة حلوة لذيذة، وتَمرُّ أخيلة

قبيحة كريهة، وتمر أخيلة فاترة في شريط طويل، فلا تحدث أي انفعال.

وفي ساحة التعبير البياني عن الأفكار والمطالب والتخيلات والمشاعر النفسية والوجدانية توجد تعبيرات بديعة جميلة جذّابة، تتملك المشاعر، وتؤثّر في القلوب، وتتفاوت فيما بينها بما تحظَى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً. وتوجد تعبيرات قبيحة منفِّرة، وهذه تتفاوت فيما بينها بما فيها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتوجد تعبيرات فاترة تمرُّ دون أن تحدث في النفوس أيّ انفعال محبوب أو مكروه.

(٢)

وقد غدا من الثابت لدينا أن الزينة من الجمال، وأنَّ كثيراً من المقاصد والمطالب إذا قُدّمت إلينا مغلّفة بزيناتها أو مقرونة بزيناتها كنّا أكثر قبولاً لها، وانسجاماً معها، لأن جمال الزينة قد جذبنا إليها، وأقنع عواطفنا وانفعالاتنا بقبولها، لنحظَى بلذة الاستمتاع بالجمال، فتتحقق من وراء ذلك المقاصد الأساسية والمطالب.

وهذه الحقيقة تشمل الأفكار، فإذا قُدّمت بعض الأفكار المقصودة وما اشتملت عليه من مطالب اعتقادٍ أو عمل ممتزجةً أو مقرونة بزينات جميلة فكرية أو لفظية كانت النفوس أكثر انجذاباً إليها، وقبولاً لها، ثم تمسكاً بها أو عملاً بما طلب فيها.

إن شأن الأفكار كشأن المآكل والمشارب والأدوية، وسائر المطالب والحاجات، فمنها ما هو حلو بطبعه، ومنها ما هو حامض، ومنها ما هو مرّ، ومنها ما هو ليّن، ومنها ما هو قاسٍ، ومنها ما هو ناعم، ومنها ما هو خشن، ومنها ما هو مهوع مثيرٌ للغثيان، ومنها ما هو محرك للشهوة مثير لِلُّعاب.

حتى الطيبات من المآكل والمشارب وغيرها يزيدها حسناً

وجمالاً وتطريةً وتحريكاً لشهوات النفوس نحوها إذا قُدّمت في أطباق جميلة نفيسة، وعلى مائدة جميلة أنيقة، وفيَ أيد نظيفة رشيقة حلوة لِخَدَم مكتملي الأناقة حِسَان، وفي مكان منظم مليء بالأشياء الحسنة الجميلة، من منظور ومسموع ومشموم وملموس ونحو ذلك.

فالفكرة المرّة قد تحتاج غلافاً حلواً جميلاً يزينها حتى يبتلعها من توجّه له.

والفكرة الشديدة الحموضة قد تحتاج مخالطاً يعدِّل حموضتها حتى يستسيغها من توجّه له.

والفكرة القاسية بطبعها قد تحتاج أسلوباً يليِّنها ويعدِّل قساوتها.

والفكرة الخشنة بطبعها قد تحتاج أسلوباً ناعماً يغلفها ويهوّن ابتلاعها.

وكما أن الحسِّيّات الجسدية يحتاج كثير منها إلى ما يجمّله ويحسِّنه ويزيِّنه للنفوس حتى تستسيغه، كذلك الأفكار التي نريد تقديمها إلى الآخرين قد يحتاج كثير منها إلى ما يجمِّله ويحسّنه ويزيّنه للنفوس حتى تستسيغه، وهذا التجميل والتزيين والتحسين هو من عناصر الأدب الرفيع لا محالة.

ولكن ليس من الضروري لكل فكرة مقصودة بالذات أن تصنع لها مزيِّنات جماليّة لا يكون الكلام ذا أدب رفيع إلاّ بها. فكثير من الأفكار جمالها ذاتي، وإذا قدِّمت مجردة من كل الزينات والأصباغ والألوان في أحوال ملائمة لهذا التقديم كانت أرفع أدباً، وكانت النفوس أكثر تقبُّلاً واستساغة لها، فهي تزدردها أو ترتشفها بشهوة بالغة.

وهذا نظير تقديم سيد المائدة العظيم لضيفه العزيز قطعة مقشّرة من الفاكهة، أو قطعة منتقاة من أطيب اللحم، مجردة من أيّة زينات مرافقة أو مغلفة لها.

وقد يكون من رفيع الأدب تقديم الفكرة المرّة من غير تغليف ولا تحلية لتقديمها لمن يحسن إذاقته مرارتها، كأن يكون عدوّاً مجاهراً بعداوته مواجهاً بشتائمه، وفي بعض الحالات التربوية نلاحظ أنه كما يحسن الضرب يحسن ما هو نظيره من الكلام.

(٣)

والجمال في الوجود مع إدراك الناس له وإحساسهم بكثير من صوره، إلاّ أنه شيء يصعب جدّاً تحديده، ويصعب قياسه، ولا تنحصر ألوانه.

وقد وضح لدينا أن الأدب لون من الجمال، فهو إذن تنطبق عليه قواعد الجمال العامة.

إن من الجمال أحياناً أن تتصنع الحسناء، ومن الجمال أحياناً أن لا تتصنع، بل أن تظهر على طبيعتها. ومن الجمال أحياناً أن تلبس الثياب الجميلة الساترة لكثير من مفاتن جسمها بطرائق خاصة، ومن الجمال أحياناً أن تلمح بعض مفاتن جسمها إلماحاً ثم تسترها، ومن الجمال أحياناً أن تتعرّى على طبيعتها من غير ابتذال ثم تعود الى سواترها.

ومن أبدع صور الجمال التنويع فيه، والتنقل من لون إلى لون آخرٍ منه، أما الثبات والتكرار للصورة الواحدة في كل الأوقات فهو مُمِلٌّ للنفوس مهما كانت هذه الصورة جميلة.

باستثناء تكرار المقاطع في بعض ألوان صور الجمال، كشجرة

الورد على رأس كل زاوية عند منعطف الطريق، أو على رأس كل مسافة، لتكون بمثابة الدلالة.

وكذلك حال الأفكار وأساليب عرضها الأدبي، ومثل شجرة الورد المتكررة على رأس كل مسافة أو على الزوايا، آية ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ في سورة الرحمن عروس القرآن. لكنها صورة قدّمت لوناً من ألوان الجمال الأدبي ومثالاً من أمثلته، لم يوجد في سائر القرآن نظير مطابق لها، بل فيه ألوان أخرى.

ومع وجود قسم من الجمال لا يختلف اثنان في استحسانه، وقدر من القبح لا يختلف اثنان في استهجانه، فكم توجد أوساط مشتبهات تختلف فيها أذواق الناس، وتختلف وجهات أنظارهم إليها.

فما يستحسنه بعض الناس منها قد لا يراه غيرهم حسناً، وما يستقبحه بعض الناس منها قد لا يراه غيرهم قبيحاً، وتتدخل النظرات الذاتية الشخصية في قسم المشتبهات بشكل واسع، ويصعب فيها تحديد النظرة الموضوعية.

ويخضع الأدب لهذا القانون العام.

فقد يرضي كلام ممدوحاً مغروراً بنفسه بحب المديح، فيراه أدباً رفيعاً مستحسناً، لكنه في الوقت نفسه يسخط حاسداً له، فيراه تزلّفاً تافهاً، وأسلوباً في المدح سخيفاً مستهجناً، ويسمعه فريق ثالث فلا يرى فيه ما يحرك النفس بإعجاب ولا ما يحرك النفس بتقزّز واستهجان.

وقد ترضي تعبيرات حبٍّ معشوقة، فتراها أدباً رفيعاً مستحسناً، فتحفظها وترويها بإعجاب، لكن هذه التعبيرات قد أسخطت في الوقت نفسه أترابها، فرأينها تعبيرات سخيفة مبتذلة.

ثم يسمعها حياديّون فلا يرون فيها رأي المعشوقة المعجبة، ولا رأي أترابها الساخطات، بل يرون فيها أدباً عادياً.

وهكذا تختلف وجهات أنظار الناس الى هذه الأوساط المشتبهات، التي لم يتمحّض فيها الجمال، ولم يتمحّض فيها القبح، وتتدخل عوامل نفسية في الاستحسان، أو في عدم الاستحسان، وربما تتدخل عوامل أخرى تتصل بمدى القدرة على الاحساس بالجمال، أو بمدى الخبرة بفنونه وألوانه وأشكاله ونسبته، أو بمدى دقّة الملاحظة التي قد تقع على النقص فتقف عنده، وتجسّمه حتى يملأ الساحة، أو تقع على لمحة جماليّة فتقف عندها معجبة وتعظّمها، ويتدخل الوهم في مدّها حتى تملأ كل الساحة. وهكذا.

(٤)

ولدى تحليل العوامل التي تجعل الناس يختلفون في نظراتهم الجماليّة إلى الأشياء اختلافاً كبيراً، حتى إن الشيء الواحد قد يستحسنه فريق، وقد يستقبحه فريق آخر، ويجعله فاتراً واقفاً على الحياد فريق ثالث، والمستحسنون له قد يتفاوتون في درجة استحسانه، والمستقبحون له قد يتفاوتون في درجة استقباحه. لدى هذا التحليل نلاحظ العوامل التالية:

العامل الأول: التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أجهزة الإحساس في الانسان والأشياء التي يدركها ويحس بها.

والأمزجة والأذواق البشرية تختلف في هذا اختلافاً فطرياً لا ينكر وبسبب هذا العامل قد تختلف أحكامهم في هذا المجال.

العامل الثاني: تدخُّل أهواء أو مصالح شخصية مرافقة.

وبسبب هذه الأهواء أو المصالح تختلف وجهة نظر أصحابها عن وجهات أنظار الآخرين الذين ليس لهم أمثال هذه الأهواء أو المصالح.

العامل الثالث: حكم العادة والإلف، فكثير من الناس إذا اعتادوا لوناً من ألوان الجمال آثروه تلقائياً على غيره، وحكموا بأنه أحسن وأجمل، وربما لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

العامل الرابع: مؤثِّرات البيئة، فقد تتواضع بيئة ما على استحسان لون جمالي، وربما كان عادياً جدّاً وابتدائياً في سلّم الارتقاء الجمالي، إلا أن تأثير البيئة يجعل الناشئين فيها يقتبسون منها الأذواق الجماليّة، فيتأثرون بأحكامها الناقصة، أو أحكامها التي لا تنمُّ عن ذوق رفيع، وكذلك البيئات الراقية تمنح الناشئين فيها أذواقاً رفيعة، والبيئات تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا المجال.

العامل الخامس: مدى القدرة على تصيّد نقاط الجمال والإغضاء عمّا سواها، وجعله أرضية لا تثير الانتباه. وقد يكون العكس، فتكون القدرة النقدية ذات إحساس مفرط تجاه تصيّد نقاط النقص أو القبح فقط، أما سواها فتُغضي عنه، وتجعله أرضية غير مثيرة للانتباه.

وبسبب هذا العامل بشطريه وتفاوت نسبة كل منهما في الناس تظهر أحكام متباينة أو متخالفة.

العامل السادس: سعة التجارب وضيقها في اكتساب ذوق الإحساس بالجمال، وتفاوت نسبه.

الفصل الرابع
عناصر الكمال والجمال الأدبي

(١)

بعد توافر الأركان الأساسية للكلام البليغ، وهي:

١ ـ مطابقته لمقتضىٰ حال المخاطب به.

٢ ـ والتزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

٣ ـ وخلوّه من التعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي.

بعد توافر هذه الأركان الأساسية توجد عناصر كثيرة تكسب الكلام ارتقاء أدبياً، وتعطيه جمالاً وإبداعاً، ورونقاً وحياة، وقدرةً على التأثير والهيمنة على النفوس والأفكار والقلوب.

وبمقدار ما يمكن أن يجتمع في الكلام من هذه العناصر متلائمةً غير متنافرة، متوائمة غير متشاكسة، متحابّة غير متباغضة، مطابقة لمقتضى حال المخاطب، يكون تسامي الكلام في سلَّم الكمال الأدبي الرفيع، الذي يحتلّ قمته لدى التحليل المجهري الدقيق كلام الله المعجز. ثم يأتي من دونه كلام الناس. مع المسافات الشاسعة بينه وبين قمّة كلام الناس.

وكما نقتبس عناصر الجمال والكمال من لوحات الطبيعة التي خلقها الله، فنعمل الأعمال الفنيّة الرفيعة بمحاكاة الفنون المختلفة فيها ضمن قدراتنا البشرية، ونتتلمذ على الأمثلة الجمالية الكمالية

التي تقدّمها لنا، فنكتسب منها الذوق، وفنون الصنعة الرائعة، بأشكالها وألوانها وأنغامها وملامسها وأنظمتها وحركتها وحياتها وعواطفها ولذّاتها وآلامها وذكرياتها وتحسراتها وآمالها ومخاوفها، إلى سائر الظواهر الطبيعية في كل جامد ومتحرك ونام وحيّ.

كذلك يقتبس أهل البصيرة عناصر الجمال والكمال الأدبي من اللّوحات البيانيّة البديعة المنزّلة من لَدُنْ حكيم عليم، والتي نتدبّر ما نتدبّر منها في كتاب الله المجيد على مقدار قدراتنا البشرية.

وهذا التدبر الواعي يحتاج إلى بصيرة نفّاذة لمّاحة، وصبر طويل، ومعالجات متكررة، ومعرفة بما توصل إليه المتدبِّرون السابقون، وبحث مستمر لاستنباطات جديدة، ثم تكون أنصبة الباحثين بعد كل ذلك على مقدار مواهبهم، لا على مقدار البحر المحيط الذي يغترفون منه، ويغوصون في أعماقه، ليستخرجوا من روائعه وبدائعه.

(٢)

الكلام لفظ ومعنى

من البدهيات الاساسية أن الكلام ذا الدلالة اللّغوية انما هو لفظ ومعنى.

(٣)

بيان حول اللفظ

أما اللفظ فينحلّ الى قسمين:

١ ـ مفرد.

٢ ـ ومركب.

* * *

أما المفرد في المنظار الأدبي: فيمكن أن نقسمه الى أربعة أقسام:

القسم الأول: اللّين السهل، وتتفاوت في ذوق الأديب درجات هذا القسم، فمن هُلاميّ رجراج، مثل الكلمات الخفيفة التي يستطيع الأطفال الصغار المبتدئون بالنطق أن ينطقوا بها صحيحة سليمة، وهي غالباً تتألف من الحروف الشفوية والصوتية، ثم الحروف اللثوية والصوتية، مثل: «بابا ـ ماما ـ دادا ـ لولو» وتتدرج النسبة ارتقاء، مع المحافظة على صفة اللّين والسهولة، ولكن بالنسبة إلى نطق الكبار العاديين، مثل: «نَسْمَة ـ بَسْمَة ـ رَنَا ـ دَنَا ـ وَهَىٰ ـ وَشَىٰ» ومن السهل اللّين في القرآن قول الله تعالى:

﴿الرحمن. علّم القرآن. خَلَق الانسان. علّمه البيان. الشمسُ والقمرُ بِحُسْبان. والنجم والشجر يسجدان﴾.

القسم الثاني: القويّ الجزل، وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحسِّ المرهف درجات هذا القسم.

ومن أمثلة القوي الجزل المفردات التالية من سورة (الشمس):

«ضُحاها ـ جَلاّها ـ يَغْشاها ـ طَحَاها ـ بِطَغْواها ـ إذ انْبَعَثَ أشْقَاها ـ فَعَقَروها ـ فَدَمْدَم عليهم ـ عُقْباها».

القسم الثالث: الحُوشيُّ الغريب، وتتفاوت درجات هذا القسم. والحوشي الغريب ما قلّ في العرب استعماله، لثقله على الألسنة، حتى يكاد بعضه يُهمل في الاستعمال عند معظم العرب، مثل المفردات التالية:

الْحَنْطَبَة: بمعنى الشجاعة.
والْحَبْزَبُون، والشَّهْرَبَة: بمعنى المرأة العجوز.

طَخَا الليل: بمعنى أظلم.
تَطَشَّى المريض: بمعنى برىء.
النُّقَاخ: وهو الضرب على الرأس بشيء صلب.
الْهَبَيَّخَة: وهي الجارية باللغة الحميرية.
الْهَبَيَّخُ: وهو الرجل الأحمق. والوادي العظيم، والنهر العظيم.
الْقُدْمُوس والْقُدْمُوسَة: وهي الصخرة العظيمة.
الْعَقَنْفَسُ والْعَفَنْقَس: هو السيء الخلق.

القسم الرابعُ: الصعب الجموح، وتتفاوت درجات هذا القسم. ومن الصعب الجموح ما هو حوشي غريب، ولكن ليس كل صعب جموح كذلك، فقد لانت في ألسنة العرب كلمات صعاب، وبقيت مستعملة دارجة بين أدبائهم، إلا أنها صعبة على الألسنة لها جُموح ونفور مثل الكلمات التالية:

غَضَنْفر: من أسماء الأسد.
مُسْتَشْزِر: أي مفتول.
عَقْعَقٌ: اسم لطير.

والأديب رفيع الأدب، مرهف الحس في ذوق الكلمات، يختار في كلامه من القسمين الأولين:

* اللين السهل.
* والقوي الجزل.

ويضع ما يختار في موضعه مراعياً حال المخاطب وما يسرُّه من المفردات، وما يلائم ذوقه، ولغة قومه.

ويحسن به أن يختار لبعض الموضوعات مفردات ذات جَرْس موسيقي وإيقاع رشيق.

ويختار أيضاً من الكلمات ما يلائم المعنى من لين وسهولة أو قوّة وجزالة.

ويختار أيضاً من الكلمات ما هو أليق بالمناسبة، وبالموضوع العام للكلام، وأكثر ملاءمة لهما.

ويبتعد عن الحوشي الغريب، إلّا في مجال التعليم، أو لنُكتٍ أدبيّة خاصّة.

ويجعل الصعب الجموح مقصوراً على مواطن خاصّة تستدعي النكتةُ الأدبية اختيار بعض منها، مثل كلمة: (ضِيزَىٰ) في وصف القسمة الجائرة غير العادلة، لما لهذه الكلمة بحروفها وصيغتها من إيحاءات تلائم التشنيع على القسمة الجائرة.

والدعاة إلى الله مطالبون بالتزام هذا المنهج الأدبي في دعوتهم.

❋ ❋ ❋

وأما المركب فله في المنظار الأدبي: تقسيمات من ثلاث جهات:

١ ـ جهة السبك.
٢ ـ جهة الكثافة.
٣ ـ جهة تواصل الجمل بأدوات الربط أو تفاصلها.

❋ ❋ ❋

أولا ـ فمن جهة السبك:

ينقسم اللفظ المركب الى أربعة أقسام:

القسم الأول: المتلائم المتناسق، المتوائم السهل حسن السبك.

القسم الثاني: المتنافر الصعب العسر النطق.
القسم الثالث: سيّء السبك ضعيف الانشاء.
القسم الرابع: معقّد الترابط صعب الفهم.

والأديب البليغ رفيع الذوق، ذو الحس المرهف، المتمرس بصناعة القول الرفيع، يحاول أن يكون كلامه سليماً من أن يكون سيء السبك، ضعيف الإنشاء، ومن أن يكون معقّد الترابط صعب الفهم.

ويتحرّى أن يكون كلامه من القسم الأول (المتلائم المتناسق المتوائم السهل حسن السبك).

ويبتعد جُهْدَ مستطاعه عمّا هو متنافرٌ صعب عَسر النطق، ويولي عناية للعناصر الجمالية التالية:

١ - صياغة الجملة صياغة فنيّة سهلة الفهم، لا توقع فكر المخاطب بارتباك في ربط مفردات الجملة، ولا تكلّفه مشقّة، حتى يفهم المراد منها.

٢ - رصف الجمل رصفاً يثير الاستحسان والإعجاب لدى المخاطَب. وقد يحتاج هذا إلى التفنُّن في الجمل، ما بين متوازنات طولاً وقصراً أحياناً، وبين طويلة ومثل نصفها أو ثلثها أو ثلثيها أحياناً أخرى، وبين ترك التوازن ليذهب الكلام منساباً. وقد يحسن التكرير في بعض هذه العمليات.

ولا ضابط لمواطن الجمال فيها إلا الحسّ المرهف الذوّاق للجمال الأدبي.

٣ - وقد يجمل بعض السجع غير المتكلّف ولا المتصنّع، بشرط عدم الالتزام به في كل الكلام.

٤ - المحسِّنات البديعية اللفظية التي تأتي منسابة محبّبة غير متكلفة ولا متصنعة.

٥ ـ فنون الشعر الذي له تأثير في أساليبه وموسيقاه على كثير من مشاعر الناس.

ورجال الدعوة الى الله مطالبون بالعناية بهذه العناصر الجمالية الأدبية في دعوتهم، إن خطبوا، أو حاضروا، أو تحدّثوا، أو كتبوا، أو نظموا شعراً، أو ألّفوا مؤلفات علمية، أو توجيهية، أو أدبية. وأن يسخِّروا أدبهم في خدمة الدعوة الى الله.

* * *

ثانياً ـ ومن جهة الكثافة:

ينقسم الكلام إلى ثلاث مراتب، تعرف عند علماء البلاغة بالايجاز، والمساواة، والإطناب.

ولكل من هذه المراتب درجات متفاوتات.

وأشرح الكثافة في بناء الكلام ومستوياتها في تحليل أدبي فكري، فأقول:

كثافة بناء الكلام:

تخضع التعبيرات الكلامية عن المراد لنسب متفاوتة من الكثافة.

فمن الكلام ما هو شديد الكثافة، وقد تشتد الكثافة فيه حتى يكون بمثابة قطعة من الصخر، لا تعرف عناصرها حتى تكسر وتطحن، وتُفرَّق الأجزاء عن بعضها، وتحلّل بوسائط.

وبعض متون العلم المكثفة المختصرة هي من هذا القبيل، وقلّما يسلم التكثيف الشديد في الكلام من الإخلال في الدلالة على المراد.

وفهم المكثف من الكلام يحتاج الى ملكات ذهنية عالية، أو إلى تدريب وممارسة طويلة، وتعلّم على أيدي أهل العلم.

وتخف الكثافة ببسط الكلام وتمديده، ويتدرج ذلك في سلم كثير الدرجات، ولكن ليس لدينا ميزان نزن به كثافة الكلام، شبيه بميزان الكثافة الذي توزن به السوائل، فالمرجع في تحديد الكثافة أذواق العلماء والأدباء، وملاحظة سهولة استساغة الكلام من قبل العامة أو عدم ذلك.

وباستطاعتنا أن نقسم مستويات الكثافة في الكلام إلى ثلاث مراتب، ولكل من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات:

المرتبة الأولى:

هي مرتبة الكلام الموجز المختصر. ولهذه المرتبة عدة درجات ما بين شديد الكثافة، أي شديد الايجاز والاختصار حتى مستوى الرمزية، وما بين كثافة يتحمل الانسان العادي فهمها ولكن بشيء من الممارسة والتدرب والتأمل.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإيجاز). وتستخدم هذه المرتبة لدى اختبارات الذكاء. ولدى مخاطبة الأذكياء وكبار القوم وأمرائهم، بشرط أن يكون المخاطب بها قادراً على فهم المراد ولو بتأمُّل يسير، وبالنسبة إلى أحوال هؤلاء تداول الأدباء قديماً عبارة (البلاغة الإيجاز).

وتستخدم هذه المرتبة في الخلاصات العلمية التي يعدّها طلاب العلم للحفظ، وتَذَكُّرِ المسائل العلمية بها.

المرتبة الثانية:

هي مرتبة الكلام الذي هو متوسط البسط، وضابطه فيما أرى أن يكون لكلّ فكرة يراد الدلالة عليها لفظ يدل عليها، أو صيغة

تدلُّ عليها، أو تركيب خاصٌ يدل عليها، بشرط أن يكون المخاطب عارفاً بذلك ويفهمه دون كدٍّ ذهنيّ، ودون حاجة إلى تأمل طويل.

وقد يبدو أن هذه المرتبة ليس فيها درجات متفاوتات، إلا أنني أرى خلاف ذلك، فلها فيما أرى درجات، وتختلف هذه الدرجات وتتفاوت، باختلاف أحوال المخاطبين وتفاوتهم في قدراتهم على الفهم، واستيعاب دلالات الكلام، وفي معرفة دلالات الصيغ والتراكيب، وفي التمرس بمتابعة فهم المعاني من الكلام.

فمتوسط البسط من الكلام بالنسبة إلى المبتدىء ليس هو كذلك بالنسبة إلى الذي تقدّم أشواطاً في معرفة دلالات الكلام وفهمها. وكبار القرّاء لهم متوسط يناسبهم، والأذكياء لهم متوسط يناسبهم، والأطفال لهم متوسط يناسبهم.

فيدخل في تحديد نسبة التوسط اعتبار حال المخاطب.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة (المساواة) ولكن ربما كان تحديدي لها يختلف مع تحديد علماء البلاغة.

ويحسن استخدام هذه المرتبة في معظم الأحوال، لاسيما لدى كتابة صكوك العقود والمعاهدات، وكتابة المواد القانونية، وكتابة متون العلوم، والتعريف بالمبادىء في نصوص معدّة للحفظ والتداول بين الناس، ومن ذلك كثير من أحاديث الرسول ﷺ، مثل قوله:

«اجتنبوا السبع الموبقات»

قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟.

قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقَذْف المُحْصنات المؤمنات الغافلات» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

المرتبة الثالثة:

هي مرتبة الكلام المبسوط، والكلام المبسوط هو ما لو حذف منه شيءٌ بالنسبة إلى حال المخاطب به لفهم المراد من الكلام فهما تاماً، دون كدٍّ ذهني، ولا تأمل طويل، ولما حدث لديه أي ارتباك فكري أو غموض، ولما نقص لديه من الفهم شيءٌ.

والكلام المبسوط له حدود دنيا، يمثلها ما زاد على نسبة التوسط ولو قليلا، ثم تزداد درجات البسط كلما زاد بسط الكلام، ولا حدّ لأكثرها، وباستطاعة الثّرثار أن يمدَّ كلاماً تكفي صفحة واحدة لفهم المراد منه فهما كاملاً تامّاً، دون إرباك ولا كدّ للذهن ولا تأمل طويل، فيؤلف كتاباً من مئات الصفحات ثم لا يخرج قارئها بأكثر مما فهمه قارىء الصفحة الواحدة، ونلاحظ أمثلة كثيرة لهذه الثرثرات في كتب الشيوعيين، وكتب الذين درجوا على منوالهم، والغرض من الثرثرة تغطية عيوب المضامين الفكريّة، والإيهام والتعمية على الغوغائيين من المراهقين والمراهقات في أعمارهم أو في أفكارهم، لاسيما إذا اقترنت هذه الثرثرات بعبارات غامضة ومصطلحات توهم أن وراءها فلسفة وعلماً عظيماً.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإطناب).

وقد يحسن استخدام ما يدخل في هذه المرتبة من الكلام في دروس التعليم، وفي مجالس الوعظ العامة، وفي الخطب التي تُلقىٰ على الجماهير، وفي بعض مجالس المؤانسة والمحادثة، وفي إلقاء القصص أو كتابتها، ولكن يشترط في ذلك أن لا يصل المتكلم بالمخاطبين أو بالقراء إلى مستوىٰ السأم والملل، فبعد السأم والملل يكون الضجر، ثم النفور، وعندئذٍ يثمر الكلام عكس المقصود منه، ويشترط أيضا أن لا يكون بسط الكلام عن طريق الاستطرادات

الخارجة عن أصل موضوع الكلام، ومعلوم أن الاستطرادات تجرها أدنى مناسبة.

* * *

ثالثاً ـ ومن جهة تواصل الجمل بأدوات الربط وتفاصلها:

فقد حرر علماء البلاغة ضوابط ذلك في مبحث «الفصل والوصل» تحريراً كاملاً فيما أرى الآن، إلّا أن ضوابطهم تحتاج إلى تطبيقات واسعة على الأمثلة، لتدريب المهتمين بفنون الأدب وصناعة الكلام.

فعلى رجال الدعوة إلى الله أن يكونوا على بصيرة بمحاسن الفصل والوصل بين الجمل في الكلام، حتى يكون كلامهم أرفع أدباً، وأعظم تأثيراً.

وأعظم معلِّم لمحاسن الفصل والوصل بين الجمل كتاب الله، ثم أقوال الرسول ﷺ.

(٤)

بيان حول المعنى

إن الكلام حول المعنى يستدعي النظر إلى المعاني من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: جهة كون المعنى له لفظ لغوي موضوع أو مستعمل في عرف الناس أو في مصطلحاتهم للدلالة عليه، أو ليس له لفظ يدل عليه.

الجهة الثانية: جهة الدلالة على المعنى عن طريق الأسلوب الكلامي المباشر، أو عن طريق الأسلوب الكلامي غير المباشر.

الجهة الثالثة: جهة المعاني أنفسها وقيمها الفكرية والجمالية.

والبحث العلمي الشامل المتزن يأخذ بأيدينا إلى النظر الثاقب في المعاني من هذه الجهات الثلاث.

وبنظرة عُجْلىٰ وبحث أوّليّ متواضع أعقد لكل جهة من هذه الجهات الثلاث مقولة خاصة بها.

أولاً ـ مقولة الجهة الأولى حول المعنى:

وهي كون المعنى له لفظ يدلّ عليه أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

إن المعاني التي يمكن أن يحيط بها علم الانسان، أو يصل إليها إدراكه الذهني، أو تخيلاته، تنقسم الى قسمين:

القسم الأول: هي المعاني التي لها ألفاظ لغوية تدل عليها.

القسم الثاني: هي المعاني التي ليس لها ألفاظ لغوية تدلّ عليها.

* مثل بعض الوجدانيات والمشاعر النفسية التي لا يجد الشاعر بها ألفاظاً تدل عليها.

* ومثل بعض المركبات التخيلية التي ليس لها أمثلة في الواقع.

* ومثل الغيبيات التي لم يصل إلى حس الناس أيّة صفة من صفاتها، ولكن أدركوا بعض آثارها، كالجاذبية قبل أن يتنبّه العلماء إليها ويضعوا لها اسماً.

* ومثل كثير من عناصر الأرض ونباتاتها وحشراتها وأجزاء الأجسام المركّبة التي لم يحدّد الناس بَعْدُ أسماء لها.

* ومثل كثير من الطعوم والروائح التي لا تحصر فروعها، وإن عرفت أصولها، وكذلك الأصوات وما بينها من فروق وما لأصول أنغامها من فروع.

* ومثل كثير من الأعمال ذات الحركات المركبة المتداخلة التي صار الناس يشاهدونها بعد اختراع الآلات واكتشاف الطاقات.

وكلنا نلاحظ أنه كلّما وضح في أذهان الناس معنى من هذه المعاني، وصاروا بحاجة إلى تداوله والتعبير عنه بدأوا يضعون له لفظاً منقولاً أو مرتجلاً يدل عليه، ومع تداول هذا اللفظ مشيراً إلى المعنى الذي وضع له يغدو رمزاً معروفاً، فكلما ذكر هذا اللفظ ربط به الذهن معناه، مستخرجاً له من خزائن المعاني عنده، ووضعه في ساحة التصوّر الحاضر.

وتعجُّ كتب العلوم بالألفاظ المستحدَثة التي هي من هذا القبيل، وتعرف بالمصطلحات العلمية.

وتتزايد في تداول الناس ضمن لغاتهم الدارجة ألفاظ تدلُّ على معان لم يكن لها من قبل ألفاظ تدل عليها، لأن هذه المعاني لم تكن موضوعة من قبل موضع التداول العام، إذْ لم تكن الحاجة ماسّة إلى تداولها بين الناس.

وفي المقابل تموت ألفاظ دالّة على معانٍ لأن هذه المعاني لم تعد الحاجة ماسّة إلى تداولها، كأسماء بعض الأدوات التي أهمل الناس استعمالها.

ومن الملاحظ أن اللّغات يسرق بعضها من بعض معاني وألفاظاً فتغدو متداولة في غير مواطنها الأصلية بعد أن لم تكن كذلك.

وكثيراً ما يحتال الانسان ليدل الآخرين على معنى لا يجد له في اللغة لفظاً يدل عليه دلالة واضحة، إذ يلحظ شبهاً قويّاً أو ضعيفاً بينه وبين شيء ممّا له في اللغة لفظ يدل عليه، فيستخدم اللفظ الدال على هذا الشبيه فيضرب مثلاً منه، وإذا كان هذا

المعنى الشبيه قابلاً للتعميم، ثم التجريد من الحدود الحسية إذا كان من الحسيّات، فإن الانسان يلجأ عادة إلى التعميم بملكة التعبير اللغوية الموجودة في فطرته والمكتسبة من مجتمعه وعندئذٍ ينقل اللفظ الموضوع أساساً في عرف الناس للمعنى الحسِّي، ويعمِّمه ثم يجرِّده من الحدود الحسية.

لقد كان الباب لفظاً دالاً في الحسِّيَّات على المدخل المخصص وسط حاجز أو سور، والذي يمكن فتحه وإغلاقه عند الحاجة، فيدخل منه الانسان هو وأشياؤه الى دار أو بستان أو مدينة أو مغارة أو نحو ذلك، أو يخرج منه..

ثم لاحظ الناس أنّ هذا المعنى إذا عُمِّم وجُرّد من الحدود التي عرفوها عند الإطلاق الأول كان لفظ الباب قابلاً لأن يدل على المنفذ الذي يدخل منه الطائر إلى عشِّه ويخرج منه، والذي يدخل منه الحيوان إلى جُحْره ويخرج منه. وعلى الثقب الذي تدخل منه النحلة مثلاً إلى خليتها وتخرج منه.

ثم اتسع التعميم فصار قابلاً لأن يدلّ على حواجز في السحاب تحجز الأمطار عن الهطول، وربّما تكون هذه الحواجز طاقات ذات أنظمة خاصة، فإذا حُرِّكت هذه الحواجز تحريكاً يسمح بهطول الأمطار هطلت الأمطار. ومنه التعبير القرآني في سورة (القمر٥٤):

﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ (١١).

ثم انتقل الذهن من التعميم الى التجريد، فصار للرزق أبواب وهي أبواب معنوية، وصار للعلم أبواب وهي أبواب معنوية، ومن ذلك التعبير القرآني في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فلما نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيء، حتى

إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بَغْتَةً فإذا هم مُبْلِسون (٤٤) ﴾.

مُبْلِسون: أي يائسون مبهوتون متحيّرون ساكتون قد انقطعت حجتهم وهيمن عليهم الخزي والندم.

ونظير الباب المفتاح والمفاتيح، ومن التعميم والتجريد مفاتيح الرزق، ومفاتيح العلم، ومقاليد السماوات والأرض، قال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء وَيْقدِر، إنه بكلّ شيء عليم (١٢) ﴾ أي له مفاتيح السماوات والأرض.

ومن احتيال الانسان للدّلالة على مشاعر شوقه العنيف إلى محبوبه تشبيهه هذه المشاعر بالنار التي تلذع بحرارتها وتؤلم، وتجفّف رطوبة الجوانح. وتداول العشاق والشعراء هذا التعبير حتى قال الشاعر:

بِنْتُم وبِنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

* * *

ثانياً ـ مقولة الجهة الثانية حول المعنىٰ:

وهي جهة الدلالة على المعنىٰ بالأسلوب المباشر أو غير المباشر.

المعنىٰ:

أ ـ إمّا أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب المباشر السافر.
ب ـ وإمّا أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب الملامس بساتر.
جـ ـ وإمّا أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب غير المباشر.

فالأسلوب المباشر السافر:

هو الأسلوب الذي تكون الدلالة فيه على المعنىٰ المراد:

● باللفظ الموضوع له لغة، وهو ما يسمّى (حقيقة لغوية).

● أو باللفظ الدالّ عليه في الاستعمال العامّ الدارج وهو ما يسمّى (حقيقة في العرف العام).

● أو باللفظ الدالّ عليه عند أهل علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو في الاصطلاح الشرعي، وهو ما يسمّى (حقيقة في الاصطلاح الخاص).

والأسلوب المباشر السافر في الكلام قد يكون في كثير من الأحوال هو الأسلوب الأوقع والأكثر تأثيراً، أو الأنفع والأجدى، أو الأكثر ضبطاً.

والأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر السافر، وله النسبة الأكبر من كلّ الكلام.

ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع وأكثر تأثيراً، أو أنفع وأجدى، أو أكثر ضبطاً، الأحوال التالية:

١ ـ خطاب الذين يصعب عليهم الفهم بأسلوب غيره، كالصغار وضعفاء التفكير.

٢ ـ حينما يكون المخاطب في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصفاء الفكري، فالإنسان في مثل هذه الحالة لا يروق له إلّا الكلام الذي يدلّ على المقصود بطريقة مباشرة.

٣ ـ لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الذي يحدّد قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لا إله إلّا الله محمد رسول الله. آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٤ ـ لدى بيان المبادىء التي تعلنها الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يدلّ على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

٥ ـ لدى كتابة نصوص التشريع أو التقنين ، فالأدب الرفيع فيها هو التعبير بالأسلوب المباشر السافر، لئلّا يكون في الأفكار احتمالات تسمح بصرف الكلام عن دلالاته المقصودة.

٦ ـ لدى التعبير عن الأحكام القضائية، فالنصوص ذات الدلالة المباشرة السافرة فيها هي أكمل الأدب وأحكمه، عملاً بما توجبه مقتضيات هذه الأحكام.

٧ ـ في معظم مواقف الدعاء لله تعالى، فالتعبير المباشر السافر الموجز فيها كثيراً ما يكون هو الأدب الأرفع، مثل: ربِّ اغفر لي، وارحمني، واهدني، وسدِّدني، وعافني، وارزقني حلالاً طيّباً مباركاً فيه.

٨ ـ في كثير من صور التعليم المنهجي.

٩ ـ في ذروات التعبيرات العاطفية، فالتعبير المباشر السافر فيها عند التصافي وانعدام الرقباء هو من أرقى الأدب وأرفعه. إنّه قد يكون أوقع عند وصول الحبيبين إلى التكاشف الصريح أنْ يقول كلٌّ منهما لحبيبه: إني أحبُّك. أو يا حبيبي.

والأسلوب الملامس بساتر:

هو الأسلوب الذي يُستخدم فيه للدلالة على المعنىٰ المراد طريق التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقلي إنْ قلنا به.

فحين نقول: «وجهه كالقمر» فإنّ السامع أو القارىء يلمس أنّ المراد وصفه بأنه جميل، ولكنّ حِسَّ اللّمس يقع على ساتر التشبيه بالقمر، ولا يباشر الملموس المراد، وإنما يباشر الساتر، فبين اللامس والملموس فاصل الساتر، وهو هنا ساتر التشبيه.

ويتكاثف الساتر في التشبيه البليغ.

ويزداد الساتر كثافة في الاستعارة التصريحية.

ويزداد الساتر كثافة أخرى في الاستعارة المكنية.

مثلاً: حين نقول للولد: كن مع والديك كفرخ الطير الذي يخفض جناحيه تذلُّلاً تحت صدر أمّه أو جناحها. فإنّ الولد يلمس أنّ المراد مطالبته بأنّ يتواضع لوالديه كتواضع الذليل ذي الحاجة إلى الأمن والدفء والرزق، ولكن يلمس هذه المعاني مع فاصل ساتر التشبيه.

فإذا حذفنا أداة التشبيه، وجعلناه تشبيهاً بليغاً، لَمَس المراد نفسه، إلّا أنّه شعر قليلاً بزيادة كثافة الفاصل.

ثم إذا قلنا له كما جاء في القرآن: [واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة] على طريقة الاستعارة المكنيّة، فإنّه يلمَسُ المراد نفسه أيضاً، لكنّه يشعر بأنّ كثافة الفاصل قد زادت من جهة، وازدانت بحلاوة ملامس خاصة بها، مع جسّ المراد من ورائها.

ونلاحظ نظير ذلك في المجاز المرسل، وفي المجاز العقليّ إذا قلنا به.

فقول الله تعالى: «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت» هو من المجاز المرسل بإطلاق الكلّ وإرادة البعض، ونحن حين نسمع هذا القول، ويسرع إلى تصوّرنا أنّ الإصبع كلّها لا تدخل عادة في الأذن، إنما الذي يدخل منها رأس الأنملة فقط، نعلم أنّ المراد أنّهم يجعلون رؤوس أناملهم في آذانهم، ولكنْ لَمَسْنا ذلك من وراء فاصل، وهو هنا ساتر المجاز المرسل.

ومع لمسِ المراد من وراء الساتر أحسسنا بزينة خاصة في هذا الساتر نفسه، وبفكرة مضافة، وهي أنهم يبالغون بضغط

أصابعهم على آذانهم، فلو كان الواقع يسمح بدخولها كلّها في آذانهم لفعلوا من شدة ذعرهم وحذرهم، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة.

وقول الله تعالى: «فسالت أودية بقَدَرها» أسند فيه السيلان الى الأودية، مع أنّ السيلان للماء فيها، ولكننا حين نقرأ أو نسمع هذا الكلام نلمَس المقصود منه من وراء فاصل وهو ساتر المجاز، إذ أُسند السيلان للمحلّ، وهو هنا الأودية، ومع لمس المراد من وراء الساتر نحسّ بزينة خاصة في هذا الساتر، وبفكرة مضافة، وهي أنّ الناظر إلى تدفّق الماء في الأودية، وتدافع أمواجه، يتوهم في لحظات الانبهار أن الأودية تجري أيضاً مع الماء، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة، ويصوّر حالة التخيّل التي تعتري الناظرين المندهشين.

إنّ هذا الأسلوب الذي هو وسط بين الأسلوب المباشر السافر، والأسلوب غير المباشر، أسلوب يتسّع لإضافة زينات أدبية كثيرة، تضفي على الكلام جمالاً، ورَوْنقاً وأناقة وبهاءً، مع ما في هذه الزينات من أفكار ودلالات يمكن إضافتها، ومن تصوير فنّيّ بديع يمكن أن يقدّمه الأديب البارع عن طريقها.

الأسلوب غير المباشر:

والأسلوب غير المباشر يكون بالتعبير عن فكرة لتفهم معها فكرة أخرى، عن طريق اللوازم العقلية القريبة، أو متوسطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد.

وهذه الفكرة الأخرى إنما يريد المتكلم الإشارة إليها من طرف خفي، ولا يريد التعبير عنها بأسلوب مباشر، لغرض بياني، أو غرض تربوي، أو أي غرض آخر يقصده البلغاء.

فمع ما في هذا الأسلوب من دلالة على ذكاء من يستعمله، ومع ما فيه من مجال واسع لتفنن أدبي لا حصر له من قِبَل نوابغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجال لتحقيق أغراض كثيرة منها الأغراض التالية:

١ ـ عدم مواجهة المخاطبين بما يراد إعلامهم به لدواع تربوية، أو لدواع نفسية، كعدم المواجهة بالتكليف، وعدم المواجهة بالنَّقْد، وعدم المواجهة بالعتاب، وعدم المواجهة بالتلويم، وغير ذلك.

٢ ـ إرضاء نفس من يخاطب به، إذ يشعر بأنه محترم مقدّر من قبل من يخاطبه، فهو في نظره من مستوى الأذكياء وكبراء القوم الذين يخاطبون بإشارات الكلام وكناياته، ولا يحتاجون إلى صريح القول.

٣ ـ إخفاء المراد على جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالرمز، لأغراض سياسية، أو عسكرية أو تربوية، أو نحوها.

كما وقع في غزوة الخندق، إذ بلغ الرسول ﷺ أن بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسل وفداً من الأنصار فيه سيدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي سيد يهود بني قريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لَحْناً أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد القوم (أي تكلموا بالرمز ولا تتكلموا بصريح القول).

وكذلك فعلوا لمّا علموا أن بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقاً. إنهم لما عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلّموا عليه، ثم قالوا له: عَضَلٌ والْقَارَة. ففهم الرسول المراد، وعلم أن القوم قد غدروا كما غدرت عَضَلٌ والْقَارة بأصحاب الرجيع.

٤ ـ التوصل عن طريق اللوازم العقلية إلى معان قد لا يكون لها ألفاظ تدل عليها دلالة مباشرة.

٥ ـ تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

٦ ـ وقد يكون الأسلوب غير المباشر مقرِّباً للفكرة الغامضة، أو مقدِّماً لها مقترنة بحجّتها المقنعة بها.

٧ ـ إمكان التهرّب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادته تسوء المخاطب به، أو تسوء غيره من أنداده أو حسّاده أو غيرهم.

ومن أمثلة ذلك من يشير بطَرْف خفي إلى حبِّه، أو يلمِّح إلماحاً خفيّاً، لأن أمامه رقباء من الأنداد أو الحسّاد، أو من لا يرضىٰ بهذه العلاقة غَيْرة أو نَخْوة أو مخافة العار، والمتكلم لا يريد إثارة هؤلاء نحوه لئلا يكيدوه.

وفي كثير من الأحوال يكون خطاب الناس بالأساليب غير المباشرة هو الأجدى، لأنه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاء لغرورهم، أو أوفق لظروف الحال.

ولكن لا يصح أن يكون كلّ الكلام جارياً وفق الأسلوب غير المباشر، فالأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تؤكل معه ألوان الأطعمة، إن الأسلوب غير المباشر ينبغي أن لا يزيد في الكلام كثيراً حتى لا يفقد الكلام قواعده وأركانه الأساسية.

إن الأسلوب غير المباشر ينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على الأسلوب المباشر، وبمقدار الأغراض البلاغية، وبمقدار الحِلْيات التي تتزين بها الحِسان عادة.

وينبغي أيضاً أن يكون الكلام متنوعاً، لا ملازماً لوناً واحداً من ألوان الأساليب غير المباشرة.

إنَّ أبدع الكلام وأحلاه ما كان متنوعاً كثير الألوان، غير مقتصر على نمط واحد. ومع ذلك فليس هذا في كل مائدة كلامية. إنه قد تجمل في بعض الأحيان وفي بعض المناسبات مائدة كلامية من لون واحد من الكلام فقط.

إن طبائع النفوس عجيبة، وينبغي أن يكون ميزان الأديب تجاهها شديد الحساسية، يتتبعها بالمؤثرات الآنية عليها.

ويعرف الأسلوب غير المباشر عند علماء البلاغة باسم (الكناية) ويدخل فيه ما يعرف عند علماء أصول الفقه باسم (المفهوم) أو باسم (الفحوى) فيقولون: «منطوق اللفظ ومفهومه» سواء أكان المفهوم موافقاً أو مخالفاً. ويقولون «فحوى الكلام» وهو عندهم كالمفهوم المقابل للمنطوق.

والمعنى المدلول عليه بهذا الأسلوب غير المباشر:

أ ـ إما أن يكون معنى قريب التناول لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقلية متعدِّدة، مثل قولنا للدلالة على طول إنسان: «لا يدخل الأبواب إلا وهو يخفض رأسه أو يتقاصر بجسمه».

ويمكن أن نمثل له بقول الله تعالى: ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ أي ويثيبهم ويدخلهم جنات النعيم. لأن من أحبه الله أكرمه وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبة. ونظيره في القرآن كثير.

ويدخل فيه مثل قول الله تعالى في بيان واجبات بر الوالدين: ﴿ ولا تقل لهما أفٍّ ولا تَنْهَرْهما ﴾ أي ولا تفعل أيضاً ما هو أشدّ بداهة لأن من نُهِيَ عن القبيح الأخفّ فهو منهي عن القبيح الشديد والأشد لزوماً عقلياً.

ب ـ وإما أن يكون معنىً متوسط البعد، يدركه الذهن دون

تأمل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللفظ إليه بغير مشقة فكرية.

مثل الكناية عن كثرة إطعام الضيفان عند البدو، أن يقول قائلهم فلان: «كثير الرماد» أي مضياف جَوَاد. لأن كثرة الرماد عندهم من كثرة إيقاد النار، وكثرة إيقاد النار من كثرة الطبخ عليها. وكثرة الطبخ تدل على كثرة الضيوف بحسب العادة.

جـ - وإما أن يكون معنىً بعيداً، بسبب كثرة لوازمه العقلية، أو بسبب أن هذه اللوازم تحتاج إلى تعمق في التفكير حتى يدركها الذهن، وغالباً لا يدركها إلا الأذكياء والعلماء.

ونمثل لهذا بقول ابراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكل ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربه في السماء، فلما رأى كوكباً قال: هذا ربي. فلما أَفَلَ قال: لا أحب الآفلين.

أي: إن غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفة الحدوث لا تكون من صفات الرب الخالق، فالكوكب لا يصلح لأن يكون ربّاً، فأنا لا أحب الآفلين الذين ليس أحد منهم يصلح لأن يكون ربّاً خالقاً، إنما أحب عبادة ربّي الحقّ.

فجملة ﴿لا أحب الآفلين﴾ في معرض البحث عن الربِّ الخالق، تستدعي لدى أهل الفكر والنظر وأذكياء التأمل كل هذه اللوازم.

د - وإمّا أن يكون معنى يلمح لمحاً، أو يشم شمّاً، ويتطلب إدراكه حِسّاً مُرْهَفاً، وممارسة لإدراك مشاعر النفوس من وراء تعبيرات اللّسان.

وقد لا تظهر لوازم فكرية تدل عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أو من التصريح بشيء وعدم التصريح بقرينة أو مقابله مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويعمل الذكاء وقوة الحِدْس في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يفصح عنها اللسان، لسبب من الأسباب، كالاستحياء، أو الكبر، أو العفة، أو الخوف، أو غير ذلك.

ونستطيع أن نمثل لهذا القسم بالأمثلة التالية:

١ - قول موسى عليه السلام بعد أن سقىٰ لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مدين ثم تولّى إلى الظل:

﴿ربِّ إنّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير﴾ ٢٤ القصص ٢٨.

فهو في هذا يشير باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفية لا تعرف إلا من قرينة الحال.

٢ - قول أيوب عليه السلام بعد أن طال به المرض ثمانية عشر عاماً، يا رب إني مسَّني الشيطانُ بنُصُبٍ وعذاب. قال تعالى مبيناً دعاءه في سورة (ص ٣٨):

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذْ نادى ربَّهُ: أني مسّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب (٤١) ﴾.

بنُصْب وعذاب: أي بتعب وبلاء ومؤلمات جسدية ونفسية، فهو في دعائه هذا يشير باستحياء إشارة خفية إلى طلب الشفاء، معلّلاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جراء طول المرض، فهذه الوساوس قد زادت متاعب جسده وآلامه وعذَّبت نفسه.

٣ - قول امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرته محرراً لبيت المقدس، وكانت تنتظر أن يكون ذكراً، فجاء انثى وأسمتها مريم، قالت كما جاء في سورة (آل عمران٣):

﴿ ربّ إنّي وضعتها أنثى ﴾ وقالت: ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ (٣٦) فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التحرِّ التي تشغل قلبها ساعتئذ.

٤ ـ قول ذي النون عليه السلام وهو في بطن الحوت لربّه:

﴿لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ ٨٧ الانبياء ٢١ فالقول توحيد وتسبيح واعتراف بالذنب، إلّا أنه يشير باستحياء شديد من طرف خفي إلى طلب النجاة.

الخلاصة:

فالمعاني:

١ ـ أما أن تستفاد من دلالة الكلام المباشرة السافرة.

٢ ـ وإما أن تستفاد من دلالة الكلام الملامسة بساتر.

٣ ـ وإما أن تستفاد من دلالة الكلام غير المباشرة، ويكون ذلك في حدود ظلال الكلام.

ولهذه الحالة ثلاث مراتب: قريبة، ومتوسطة، وبعيدة. ولكل من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات.

ويلحق بالأسلوب غير المباشر أن تستفاد المعاني من قرائن الأحوال، ومن الإشارات الخفيّة الضمنية.

وهذه المعاني يتوصل إلى إدراكها بالذكاء والتفرّس والحِدْس، ومعرفة القرائن والملابسات.

فهي تُتَصيَّد ممّا وراء ظلال الكلام، والإلماح إلى هذه المعاني ذو نسب متفاوتة في الظهور والخفاء.

وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا على بصيرة بفنون دلالات الكلام على المعاني، وأن يتمرّسوا بألوان التعبير البليغ ويدرّبوا أنفسهم على تذوُّق آداب القول، وعلى معرفة أحوال التلاؤم بين أسلوب الكلام ومقتضى حال المخاطب به، حتى يكون كلامهم أكثر تأثيراً، وتكون دعوتهم متأسِّية بمنهج القرآن في الدعوة، ومنهج أنبياء الله ورسله في دعواتهم إلى سبيل ربهم.

ثالثاً ـ مقولة الجهة الثالثة حول المعنى: وهي جهة المعاني أنفسها وقيمها الفكرية والجمالية.

أ ـ إن المعاني أنفسها في أذهان الناس ومقولاتهم تنقسم إلى أقسام خمسة:

١ ـ فمنها ما هو حق بلا ريب.

٢ ـ ومنها ما هو باطل بلا ريب.

٣ ـ ومنها ما يترجّح في الظن أنه حق، وتختلف نسبة الرجحان.

٤ ـ ومنها ما يترجّح في الظن أنه باطل وتختلف نسبة الرجحان.

٥ ـ ومنها ما هو واقف في المنطقة المتوسطة تماماً، وهي الأمور التي تكافأت قوتا النفي والإثبات بالنسبة إليها، فلا هي راجحة إلى جانب الحق، ولا هي راجحة إلى جانب الباطل، وهذه الحالة الذهنيّة بالنسبة إلى الأمور التي هي من هذا القبيل، يطلق عليها علماؤنا كلمة (الشّك) في اصطلاحهم، لكن كلمة الشك في التعبير القرآني تعني غير هذا: ﴿أفي اللهِ شَكٌ؟﴾ أي أفي إثبات وجود الله أي احتمال مهما كان ضعيفاً يفترض معه أن لا يكون للكون رب خالق فاطر؟ إنّ هذا مرفوض بداهة.

ب ـ وإن المعاني أنفسها تختلف بالنسبة إلى أفهام الناس بُعْداً وقُرْباً.

* فمنها ما هو قريب من مدارك الناس، سهل المأخذ، سهل الفهم.

* ومنها ما هو بعيد نسبياً لا تتوصل إليه أفهام الناس ومداركهم إلا بالتأمل ودقّة الملاحظة، أو بقسط من البحث.

* ومنها ما هو عميق بعيد الغَوْر لا يصل إليه إلّا الأذكياء والنبهاء والعباقرة، أو الباحثون المنقِّبون.

* ومنها ما لا تستطيع مدارك الناس الوصول إليه أو الإحاطة به، وقد أصبحت الآلات الالكترونية تقدِّم للعقول نتائج لا تستطيع العقول بأنفسها التوصل إليها. وهنالك في الغيب علوم لم يؤت الناس وسائل الوصول إليها، نبّهت على بعضها الوسائل الحديثة، ودلَّت على بحورها العميقة آية ﴿ وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً ﴾ ـ الاسراء / ١٧. ودلّت عليها آية ﴿ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يَمدّه من بعده سَبْعَةُ أبحر ما نَفِدَت كلماتُ الله، إن الله عزيز حكيم ﴾ **٢٧** لقمان **٣١**.

إن المعاني كبحور عظيمة لها سطوح وشواطىء، وتحت السطوح أعماق، وتحت الأعماق أعماق أخرى، وتحت الأعماق أغوار، وتحت الأغوار أغوار سحيقة.

ومن الناس من يأخذ من المعاني ما يصل إلى الشواطىء، ومن الناس من يركب بحار المعاني ويجري على سطوحها، ويتناول من السطوح أو من العمق القريب. ومن الناس من يغوص إلى بعض الأعماق، ومن الناس من يغوص إلى بعض الأغوار، ويتفاوت الناس في نِسَب غوصهم، وكل منهم يستخرج من بحار المعاني على مقدار غوصه، وعلى مقدار استيعابه.

عناصر الجمال في المعاني:

أما عناصر الجمال في المعاني فمتنوِّعة، منها العناصر التالية:

العنصر الأول: تناسق الأفكار وترابطها بوشائجها المنطقية دون إعنات للفكر، ثم تكاملها ولو مع طيّ بعض العناصر التي يمكن أن تفهم ذهناً، ولا يشترط التعبير عن وشائج الترابط، بل ربما يكون طيّ ذلك أحلى وأكثر جمالاً أدبياً.

العنصر الثاني: الانتقال من الجذور والأصول في الأفكار إلى

الفروع الكبرى فالصغرى فالأوراق والثمار. أو من الفروع إلى الأصول. أما الخلط من غير ترابط منطقي فهو قبيح تنفر منه الأذهان، لأنها لا تستطيع أن تُجريه في جداولها المنطقية الفطرية، ولأنه يتنافى مع أسلوب الطبيعة المنظَّمة بأبدع نظام.

العنصر الثالث: محاكاة الواقع بتصويرٍ فنّيٍّ يبرز الحركة والحياة والمشاعر، ويعبر عن مختلف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة.

العنصر الرابع: الصدق في التعبير عن الحقيقة، أو عن المشاعر والأحاسيس، أو عن الآمال والرغائب، أو عمّا يسبح فيه الخيال متأثراً بمطالب النفوس، وشهواتها، ومطامحها.

العنصر الخامس: ما تشتمل عليه المعاني مما يحرّك في الناس المشاعر الوجدانية أو النفسية الحلوة، والعواطف الوجدانية أو النفسية الحلوة، أو يرضي شهوات النفوس.

العنصر السادس: ما يُعجب الأذهان من إشراقات ذكاء، وأفكار جديدة مبتكرة، بشرط أن لا تكون قبيحة بطبيعتها.

العنصر السابع: ما يسرُّ الخيال ويعجبه ويمتِّعه مما يرضي الرغبات النفسية التي يتمناها الانسان ويعجز عن الوصول إليها وتحقيقها.

أ ـ فمن الحق والصدق ما هو جميل جداً:

إن التصوير الفني الذي يُبرز في الكلام صورة الواقع المتحدَّث عنه، حتى كأنه مشاهد ملموس بحركته وحياته ورونقه وجماله هو من أرفع الأدب وأجمله، وكم من واقع هو أجمل وأكمل من الخيال.

وإن الكلام الذي يعبِّر عن الحقائق الفكرية المجرَّدة بطريقة

مفهومة سهلة لينة طيّعة في الفكر وفي اللسان، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإن الكلام الذي يحدِّد الأحكام الشرعية أو الأحكام القانونية أو مسائل العلوم بوضوح، ودقّة تامة، ورشاقة وعذوبة لفظ، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإن الكلام الذي يعبِّر تعبيراً صادقاً عن مشاعر النفس الوجدانية أو التخيلية لدى مشاهدة ظاهرة طبيعية أو حادثة إنسانية هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإن الكلام الحلو الذي يرضي الآمال والمطامع النفسية، بإقناعات صادقة، أو بإقناعات توهم بأنها صادقة، فتستر بذلك عورات التلفيق والكذب، هو من أرفع الأدب وأجمله.

أما الكلام الذي تنكشف فيه عورات التلفيق والكذب فهو كلام قد تمجُّه النفوس، ولو سيق لإرضاء الآمال والمطامع النفسية.

وإن الكلام الذي يصنع قصصاً مقتبسة ممّا يجري في الواقع نظائرها، هو من أرفع الكلام القصصي وأجمله.

دعوى «أعذب الشعر أكذبه»:

أمّا دعوى: «أعذب الشعر أكذبه» فهي دعوى لا أساس لها من الصحّة، لدى التحليل والبحث عن العناصر الجمالية في الأدب.

إن الحق إذا لبس ثوباً أدبيّاً جميلاً كان أجمل من الباطل لا محالة، مهما لبس من أثواب جميلة مزخرفة.

إن الحُلَّة والحِلْيَة الأدبية اللَّتَيْنِ يرفل بهما قول الله تعالى في سورة (الرعد١٣):

﴿ أنزل من السماء ماءً، فسالت أودية بقَدَرها، فاحتمل السَّيْل زبداً رابياً، ومما يوقدون عليه في النارَ ابتغاءَ حِلْية أو متاع زَبَدٌ مثلُه، كذلك يضرب الله الحقَّ والباطلَ، فأمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفاء. وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) ﴾.

للفكرة الحقِّ التي تبين واقع انتصار الحق والمحقِّين بعد أحداث الصِّراع بين الفريقين، أجمل من كل أدب يُزيِّن فكرة باطلة لتكون مقبولة محبَّبَة.

ربما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبية عملاً أدبيّاً جميلاً، لأن التضخيم والتجسيم في مفاهيم الناس لون من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تصوِّر الناس إلى حجمها الطبيعي.

إنّ الفكرة المشتملة على كذب سخيف ممجوج قد يستعذبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذَّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها ومجافاتها للحقيقة مجافاة واسعة المسافة.

في قول المتنبي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وفي قول الآخر:

ولو أن ما بي من جَوىً وصبابةٍ على جبلٍ لم يدخل النار كافر

قد نلاحظ فكرة غريبة لا يتصيّدها إلا شاعر ذَكِيّ، فنعجب بطرافتها، ولكنّنا مع ذلك نمجُّها، لأنها تشتمل على دعوى كاذبة سخيفة.

أمّا حين تكون الفكرة مبتكرة حلوة، وتكون الدَّعْوى صادقة

في أصلها، مضخَّمة مجسَّمة مبالغاً بها في صورتها الأدبية، فإن الكلام يكون حينئذٍ أرفع أدباً، وأعلى كعباً، وأوقع في النفس.

هَلُمَّ فَلْنَلْحَظْ اجتماع الصدق والأدب الرفيع في قول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠)

﴿ يوم نقول لجهنم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ (٣٠) ﴾.

إن في هذه الآية حلاوة فكرة السؤال والجواب. وحلاوة الجواب الذكي الذي لم يكن مباشراً بصيغة: (لم أمتلىء) أو بصيغة (لا) مع كثرة الذين أُلقوا فيها. وإنّما جاء على صيغة سُؤال النَّهِم الشَّرِه طالب المزيد: ﴿ هل من مزيد؟ ﴾.

وما دام باستطاعة الإنسان أن ينتقي من الحق والصدق عناصر جمالية لأدبه فما أوفر الحق والصدق في بيانات الإسلام أمام الدعاة الى الله، وما عليهم إلا أن يغترفوا.

ب ـ ومن الأفكار الجديدة المبتكرة ما هو جميل جداً:

وكلنا نلاحظ أنّ الناس تعجبهم وتحلو لديهم المعاني الجديدة المبتكرة، ويقولون في عباراتهم الدارجة: لكل جديد لذّة.

فاشتمال الكلام على المعاني الجديدة المبتكرة ـ دون أن تكون قبيحة في ذاتها ـ هو من عناصر الجمال الأدبي، والزينة الجوهرية في الكلام.

على أن كلّ فكرة جديدة مبتكرة يستعذبها الناس ويعجبون بها، قد تمسي مبتذلة مزهوداً فيها، متى تداولها الناس واستعملوها كثيراً، باستثناء الأفكار التي هي بمثابة الخبز في الأكل أو الملح في الطعام، أو الماء والهواء.

وما أوفر المعاني الجديدة التي يمكن استنباطها من كتاب الله عز وجلّ، ويمكن إرضاء عقول الناس بها، وما على الدعاة إلى الله إلا أن يحسنوا الاستفادة منها.

ومن المبتكرات في المعاني ما تكون جدّته في الجمع والتركيب.

مثلاً:

إن التعبير الساذج عن عدم العدل في مجال الحب الذي يعاتب به الانسان العادي أميراً ذا مكانة، أن يقول له: يا سيدي إني أحبُك حبّاً عظيماً مع المحبِّين ولكنَّك لا تعامل حُبّي بالعدل كما تعامل الآخرين.

إن مشاعر هذا الانسان وقفت عند هذا الحد فأعطىٰ هذا التعبير.

لكن المتنبّيَ بذكائه تجاوز هذه المشاعر البسيطة، فأدرك أن سيف الدولة أعدل الناس، وأدرك أنه هو الْحَكَمُ لو شاء أن يشكوه إلى حَكَم، ثم رجع فأدرك أنه هو الخصم، ثم استدرك ليكشف أنّ الخصومة على حبِّه وما يقتضيه هذا الحب.

كل هذه الأفكار والمشاعر قد اجتمعت وتراكبت، وتدخّل الذكاء فأحاط بها معاً، وتدخَّلت القدرة البيانية على التعبير عنها مجتمعة بطريقة تفهم بلا تعقيد ولا كدٍّ للذهن، فقال المتنبي لسيف الدولة:

يا أعدلَ الناس إلاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ

جـ - ولإشراقات الذكاء في الأدب تأثير عظيم جدّاً في ارتفاع المستوى الأدبي:

إن التعبيرات غير المباشرة أو المباشرة بساتر عن الأفكار المقصودة بالذات لا تكاد تحصر.

ويتفاوت الناس فيها بمقدار تفاوتهم في القدرة على تصيّد المعاني التي لها بالأفكار المقصودة صِلَة يمكن عن طريقها الإشارة إليها، أو الدلالة عليها، ولو إلماحاً، أو من جانب خفي.

ومن الأسباب الجوهريّة في ارتقاء المستوى الأدبي للكلام ما يكون لدى المتكلم أو الكاتب من قدرة في هذا المجال.

كالقدرة على تصيُّد الأشباه والنظائر، واستخدام بعضها لبعض، في الأمثال والتشبيهات، والاستعارات، وأنواع المجاز التي يكنِّي بها الأديب عن مراده، وكالقدرة على معرفة الروابط بين الأفكار، والانتقال فيها بين اللوازم والملزومات، والأجزاء والكل الذي يجمعها، والخاصّ والعام، والمتناقضات والأضداد، وغير ذلك من المعاني ذات الترابط فيما بينها في الواقع أو في الفكر، **فهي تتخاطر معاً ولو كانت متناقضات وأضداداً، ويستدعي بعضها بعضاً.**

ولا بدّ مع ذلك من توافر الذوق الفني والحسّ الجمالي الرفيع، لوضع هذه الأشياء في مواضعها، بحسب مقتضى حال المخاطب، فرداً كان أو جماعة.

مثلاً:

اعتاد الأدباء والشعراء أن يشبِّهوا الجواد بالبحر، لأن البحر ماؤه كثير، وعطاؤه وفير، فهو لا يمنع آخذاً منه، لكن إشراقات الذكاء مكَّنت الشاعر من أن يعطي هذا التشبيه المتداول زينةً جديدة مُحَبَّبة، بتقسيم البحر إلى لُجَّةٍ وساحل، فقال في ممدوحه:

هو البحر من أيّ النواحي أتيتَه ... فلُجَّتُه المعروف والجودُ ساحله

د ـ ولتحريك المشاعر الوجدانية والنفسية الحلوة تأثير عظيم في ارتفاع المستوى الأدبي:

ولا ريب في أن الناس تُعجبهم وترضيهم وتحلو لديهم المعاني التي تحرّك لديهم المشاعر الوجدانية والنفسية الحلوة،

والعواطف الوجدانية والنفسية الحلوة، أو تذكرهم بها.

مثل: مشاعر الحب، ولقاءات الأحبّة، وعواطف الحنان والشفقة، ومشاعر الشوق لدى العشّاق، ومشاعر الإيمان وأحاسيسه العميقة لدى المؤمنين، ومشاعر العبادة الحلوة لدى العبّاد الصالحين، ومشاعر الفخر والاعتزاز بالأمجاد، ومشاعر الإحسان وفعل الخير، ومشاعر الأخوّة والصدق والوفاء، ومشاعر الأبوَّة والأمومة وسائر القرابات، ومشاعر العطف على الأيتام، ومشاعر التوبة والندم والرجعة إلى الله، ومشاعر الزهد بالدنيا والتطلُّع إلى النعيم المقيم في الآخرة، ومشاعر التضحية والبطولة والفداء، ومشاعر الإيثار، ومشاعر البر والتقوى، ومشاعر التحدِّي والصمود، وآمال النصر على الطغاة والبغاة وعُبَّاد الشيطان.

وما أوفر المعاني التي تحرِّك هذه المشاعر الحلوة لدى الدعاة إلى سبيل الله، وما عليهم إلا أن يحسنوا الاستفادة منها.

ثم إن المشاعر النفسيّة والوجدانية منها ما هو ساذج بسيط، ومنها ما هو مركَّب متفاصل، ومنها ما هو مركَّب متداخل معقّد.

ويرتقي مستوى الكلام الأدبي لدى عِلْية الأدباء، ولدى العامة أيضاً، بقدر ارتقاء المشاعر التي يأتي التعبير عنها ولو بطريقة مباشرة.

ويصلح مثالاً لهذا سموُّ المشاعر في قول المتنبي لسيف الدولة:

إن كان سَرَّكمُو ما قال حاسِدُنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكُمو أَلَمُ
يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقَهم ... وجدانُنا كلَّ شيء بعدَهم عَدَم

ومركب المشاعر في قوله له:

يا أعدل الناس إلاّ في معاملتي ... فيك الخصامُ وأنت الخَصْمُ والحَكَم

المشاعر الوجدانية والنفسية في الدعوة الى الله:

وإذا كان للمشاعر الوجدانية والنفسية هذا الأثـر في ارتقاء مستوى الكلام الأدبي، وفي تأثيره القوي على النفوس، فإن لدى الدعاة إلى الله كنزاً عظيماً من المشاعر التي يتيسر لهم الانتفاع منها في تحقيق أهداف الدعوة، وفي رفع مستوى كلامهم الأدبي.

ولكن لا بدَّ من أن ننبِّه إلى عنصر مهم جدّاً، ألاَ وهو أن يكون المتكلِّم منفعلاً حقاً في عمق وجدانه ونفسه، بالمشاعر التي يريد التعبير عنها، ويحرص على تحريكها في أعماق سامعيه أو قارئيه.

إنّه كلَّما كانت مشاعر الداعي حول ما يدعو إليه من دين الله أعمق، وكان إحساسه بها أعنف وأوضح، كان تأثيره في سامعيه أكثر وأعمق، ولذلك نجد تأثير المخلِصين عظيماً.

وحين تقترن بهذه المشاعر الصادقة العميقة قدرات أدبية على البيان، وتجارب مختلفات في ميادين التعبير الأدبي عن الأفكار وعن الأحاسيس والمشاعر النفسية أو الوجدانية، فإن القدرة على التعبير عن هذه المشاعر تكون أكمل وأوفى، ثم يكون الكلام أكثر نفاذاً إلى أعماق سامعيه أو قارئيه، وأكثر تحريكاً لمشاعرهم.

ويرتقي الداعي إلى سبيل الله في تعبيراته الأدبية البليغة ضمن دعوته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانية، وتجاربه الوجدانية، ومشاعره النفسية الحلوة، في مجالات الصلة بالله، والطاعـة له، والتـوبة والندم، وعطاءات الخير، والتطبيقات الاسلامية المسعدة للنفوس، والمريحة للضمائر، والممدَّةِ للقلوب بالطمأنينة..

(٥)

منثورات في عناصر الجمال الأدبي

أولاً ـ الأسلوب البياني:

من عناصر الجمال الأدبي في الكلام ملاءمة أسلوبه البياني للأمور التالية:

أ ـ للهدف العام من الكلام.

ب ـ للمضمون الفكري في الموضوع العام الذي يجري فيه الكلام، وفي الفكرة الخاصة التي يتحدَّث عنها.

جـ ـ لوضع المخاطب وحالته الفكرية والنفسية والاجتماعية.

د ـ للمناخ النفسي العام الذي يُلقى فيه، أو يوجه له، فالمناخات النفسية كثيرة، ولكل منها أسلوب بياني يلائمه.

وللتوصل الى الملاءمة المطلوبة التي هي عنصر مهمٌّ جداً من عناصر الجمال الأدبي لا بدّ من ملاحظة الأمور التالية بعناية ودقة:

١ ـ ملاحظة حال المخاطبين أو الذين يوجّه لهم الكلام، وذلك بصفة عامة.

ويدخل في هذا ملاحظة بيئتهم العامة، ومفاهيمهم السائدة بينهم.

٢ ـ ملاحظة الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي يكون عليها المخاطبون بصفة عامة.

ويدخل في هذا ملاحظة حالات السلم والحرب والأمن والخوف، وسعة الرزق والجوع، والنصر والهزيمة، والإيمان والكفر والنفاق، والطمع واليأس، والمسرة والحزن، والصفاء والكَدَر،

ونحو ذلك من الأحوال النفسية الخاصة، التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أيضاً ملاحظة حالات الذكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكرية التي يستدعي كل منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أخيراً ملاحظة الحالات الاجتماعية، كالبداوة والتحضُّر، والرفعة والضِّعة، والقوة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

٣ ـ ملاحظة الظرفين الزماني والمكاني اللَّذين يُقَالُ فيهما أو يُعدُّ لهما الكلام.

فمن الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانية أو المكانية، في حين أنه قد لا يلائم ظرفاً آخر.

إنّ ما يلائم في مواسم الأعياد قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مكان الفرح لا يلائم في مكان التَرَح، وما يلائم في مواطن تأدية النُّسُك قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وكذلك العكس، وقس على هذه المتخالفات.

٤ ـ ملاحظة المناخ النفسي العام، فالمناخات النفسية كثيرة، ولكل منها أسلوب بيانيّ يلائمه.

ومن أمثلة المناخات النفسية: المناخ الخطابي، المناخ الحربي، المناخ العاطفي، مناخ السفر، مناخ الحضر، مناخ الخوف، مناخ الطمع، مناخ القلق، مناخ الهدوء والسكينة، مناخ الغضب، مناخ الرضا، مناخ التربية والتعليم، مناخ الموعظة

والإرشاد، مناخ الخصومة والجدل، مناخ الطلب والاستجداء، مناخ الدعاء، وهكذا إلى مناخات كثيرة أخرى.

الشرح:

من المعلوم أن المتكلم الحكيم لا بد أن يكون ذا هدف من كلامه، وللوصول إلى الهدف المقصود من القول أساليب بيانية كثيرة، ولكل هدف أساليب تناسبه.

وملاءمة الأسلوب البياني للهدف من الكلام هي فيما أرى ركن أساسي وجوهري لارتفاع مستوى الكلام الأدبي البليغ.

* فحين يكون غرض الكلام مثلاً أن يحدث تأثيراً إقناعياً، يكون الأسلوب البياني الأكثر إقناعاً وتأثيراً في هذا المجال هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام أن يحدث. انفعالاً حماسياً، ويستثير خلق الشجاعة والبسالة والإقدام، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للحماسة واستثارة للبسالة والشجاعة والإقدام هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام أن يثير الغضب أو يحدث الغيظ، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للغضب أو إحداثاً للغيظ، هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

فمن أرفع الأدب في هذا المجال قول الله تعالى في شأن المنافقين الذين إذا خلَوا عضُّوا أناملَهم غيظاً من المؤمنين: ﴿ قل: موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور ﴾ **١١٩** آل عمران/ **٣**.

وقول الله تعالى بشأن المشركين الذين يكرهون ظهور الاسلام وانتصاره في سورة (الصف ٦١).

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ليظهره على

الدين كله، ولو كره المشركون (٩) ﴾.

ولكن الاسلام قد عزل السباب والشتائم عن أدبه، وأوصى المسلمين بذلك، فقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم.. (١٠٨) ﴾.

كما عزل عن أدبه ما يسمّى بالأدب المكشوف أو أدب الفراش، وستر القرآن عوراتِ هذا المجال بالكنايات والعمومات ﴿ أو لامستم النساء ﴾.

﴿ زُيِّن للناس حبُّ الشهواتِ من النساء ﴾. ﴿ وقد أفضى بعضُكم إلى بعض ﴾ ﴿ من قبل أن تمسُّوهنّ ﴾ ﴿ من قبل أن يتماسّا ﴾ ﴿ ما لم تمسّوهن ﴾ ﴿ فلما تغشّاها ﴾ ﴿ هنَّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهن ﴾.

* وحين يكون غرض الكلام تحقير من يوجه الكلام ضده، أو السخرية منه، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة، بشرط أن لا يعكس الأثر على موجِّه الكلام.

* وحين يكون غرض الكلام أن يستعطف من يوجَّه له، فيحرك لديه عاطفة الشفقة، أو الرحمة أو يحرِّك لديه خُلُق الجود، أو نحو ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام التودّد والتحبب لمن يوجّه له الكلام، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام استرضاء من يوجّه له الكلام

صراحة أو ضمناً، في دافع من دوافع نفسه، كالكبْر، أو العُجْب بالنفس، في جمال، أو علم أو حَسَب، أو نسب، أو مكانة اجتماعية، أو قدرة إدارية، أو حكمة أو حِنْكة، أو غير ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

وهكذا في سائر أغراض الكلام.

ولكل غرض من أغراض الكلام أساليب تناسبه، فما يصلح في مجال الحماسة لا يصلح في مجال الإقناع، وما يحلو في الخطابة لا يحسن في مقام التعزية، وما يحسن في الجدل لا يحسن في مقام الاعتذار، وما يلائم بثّ الوَجْد، قد لا يلائم استجداء الرِفْد، وما يناسب المدح قد لا يناسب الهجاء.

وذوق الأديب البليغ يحسّ بوجوه الملاءمة أو عدمها بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحرَّى أفضل الأساليب ملاءمة للهدف، الذي يقصده من كلامه.

ولا غَرْوَ أن بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملاءمة وأعظم تأثيراً من بعض.

ثم لكل صنف من أصناف المخاطبين، ولكلّ حال من أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية أساليب ملائمة، وأساليب غير ملائمة، وعلى المتكلِّم البليغ أن ينظر في صنف من يريد توجيه كلامه له، وأن ينظر في حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية، ويحسن اختيار الأسلوب الكلامي الذي يلائمه ويؤثر فيه فرداً كان أو جماعة.

فمن أصناف الناس: عامة وخاصة، وجاهلون وعلماء، وأغبياء وأذكياء، ودهَمْاء وأمراء، وبُدَاة جفاةٌ ومتحضِّرون، وأهل حلم

وعقل، وأهل خِفّة وطَيْش، ومنهم من يُمْلَكُ من طريق عاطفته، ومنهم من يُمْلك من طريق عقله.

وهكذا تختلف أصناف الناس اختلافاً كثيراً، ولكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه، وتكون أكثر تأثيراً فيه من أساليب أخرى.

ونظير اختلاف الناس اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، فما يلائم الانسان وهو هادىء الفكر قد لا يلائمه وهو مشوّش الفكر مضطربه، وما يلائمه وهو في حالة الرضا قد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو فقير ذليل قد لا يلائمه وهو في سَعَة من المال وعز، وما يصلح له من الخطاب وهو وحده قد لا يصلح له وهو بين الناس.

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال، ولكل حال أساليب من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وملائمة وتأثيراً من بعض.

وفي هذا المجال الذي تختلف فيه أهداف الكلام، وتختلف فيه أصناف المخاطبين، وتختلف فيه أحوالهم، تتفاوت مراتب البلغاء والبيانيِّين.

ما هو المراد من الأسلوب البياني؟:

قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانية وإن حاولنا ذلك، ولكننا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلامية التي إذا كانت ملائمة للغرض العام من الكلام، والوضع العام للمخاطب، والحال الخاص له، والمناخ النفسي العام، كانت أسلوباً بيانياًّ مرتقياً في معارج البلاغة الراقية، والأدب الرفيع.

فمن الأساليب الكلامية مايلي:

أ ـ أسلوب العرض المباشر الصريح للفكرة المراد الإعلام

بها، أو العرض الملامس بساتر.

ب ـ أسلوب العرض غير المباشر الذي يعتمد فيه على مقدار ذكاء المخاطب، ويدخل في أسلوب العَرْض غير المباشر التعريض والتلميح، ومعاريض الأقوال، والإشارة الخفية، وفحوى الكلام، ولهذا الاسلوب صور كثيرة جداً.

جـ ـ أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسطة موضحة من كل جوانبها، ولهذا الأسلوب مراتب وصور كثيرة، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من الناس، وأغراضاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصة للمخاطبين.

د ـ أسلوب الإيجاز والاختصار، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصور كثيرة، وأسلوب الايجاز والاختصار يناسب أصنافاً من الناس، كالأذكياء، والأمراء، وأهدافاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصة للمخاطبين.

هـ ـ أسلوب الترغيب، وله مراتب وصور كثيرة، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الانسانية، لما أودع الله فيها من مطامع.

و ـ أسلوب الترهيب، وله أيضا مراتب وصور، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النفوس الانسانية، لما أودع الله فيها من حذر وخوف.

ز ـ أسلوب العنف والقسوة، وهو يلائم بعض الناس وفي بعض الأحوال.

ح ـ أسلوب الرِّقَّة واللين.

ط ـ أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة.

ى ـ أسلوب الاقناع الفكري الهادىء.

ك ـ أسلوب الجدل.

ل ـ أسلوب الكتابة التقنينيّة، والكتابة العلمية المحررة، والمحدّدة للمقاصد بنصوص بعيدة عن الاحتمالات الأخرى.

وهكذا تختلف أساليب الكلام، وكلٌّ منها يناسب أهدافاً معينة، وأصنافاً معينة من الناس، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين، ومناخات نفسية عامة، وقد يجتمع عدد من أساليب الكلام في كلام واحد حينما لا تكون متنافية، أو حينما يلائم بعضها بعضاً.

مثال:

ولتقريب فكرة اختلاف الأساليب البيانيّة التي يُتوخّى منها تحقيق الغرض من الكلام، ويراعىٰ فيها أوضاع المخاطَبين وأحوالهم، نضرب المثال التالي:

نضع في هذا المثال مطلباً من المطالب التي قد يراد الإعلام بها، بغية تحقيقها، ثم ننظر إلى طائفة من الأساليب الكلامية التي يمكن أن يتوصل بها إلى الإعلام بالمطلوب.

وهنا لا بد أن نرى من الأساليب ما هو ساذج صريح، يتناول الطّلب مباشرة، ثم نرى من الأساليب ما يدل على المطلوب دلالة غير مباشرة، ويعتمد فيها على ذكاء المخاطَب وقدرته على إدراك المطلوب من خلال إشارات القول ومعاريضه.

ومن المسلّم به أنه كلما كان المخاطب أكثر ذكاء ورغبة بتلبية الطلب، كان إخفاء الاشارة إلى الطلب في أسلوب القول الدال عليه لدى مخاطبته أعلى منزلة من الناحية البيانية، وأكثر بلاغة، هذا في غير النصوص التي يُقصد منها تثبيت أحكام بعيدة عن الاحتمال الذي قد يُفهم منه غير المراد.

وهنا تتكاثر الأساليب التي تشير في خفاء إلى المطلوب، وبعضها أرقى من بعض، أو أعذب وأحلىٰ، أو أبدع أو أكثر نفعاً وتأثيراً.

ولنفرض أنَّ عدداً من الناس كل واحد منهم يريد الحصول على كأس ماء يروي ظمأه، وهم متفاوتون في قدراتهم البيانية، وحاول كل واحد منهم الإعلام بما يريد.

أما الساذج منهم فيأمر أمراً بإحضار كأس الماء الذي يريد بطريقة لا لين فيها ولا تطرية ولا حلية، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأبلغ في مخاطبة بعض الناس، وفي بعض الأحوال والأوضاع، لا سيما في طلب الأكبر من الأصغر، فالأسلوب البياني الأبلغ حينئذٍ هو الطلب بالأمر المباشر، والأوامر العسكرية من القادة الى الجنود قد لا ينفع فيها إلّا مثل هذا الأسلوب المباشر الجاف، لمقتضيات التدريب على الانضباط العسكري، وكذلك شأن القرارات والمراسيم والأوامر التي توجهها سلطات الحكم، ومن هذا الباب التكاليف الشرعية التي فيها أوامرٌ ونواهٍ، مثل: «أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وافعلو الخير، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تسرقوا، ولا تزنوا» ومع ذلك فإننا نلاحظ معظم التكاليف الشرعية تقترن بتطْرية الترغيب والترهيب، وبيان الحكمة، والتمهيد بالمقدِّمات، والتلطّف بالنداء التكريمي، مثل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ومثل ﴿ يا عبادي ﴾ وترتقي من فوق الأمر المباشر الجاف أساليب الإعلام بالطلب، فيأتي أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب، ومن أمثلة ذلك في موضوع طلب كأس الماء «من فضلك أعطني كأس ماء».

ثم يأتي فوقه أسلوب الشكر على تحقيق المطلوب قبل تحقيقه، ومن أمثلة ذلك: «أشكرك على كأس الماء الذي ستقدمه لي».

ثم يأتي من فوق ذلك أسلوب التلميح والتعريض، ولهذا الأسلوب صور كثيرة، ودرجات بعضها أرقى وأعذب من بعض ومن أمثلة هذا الاسلوب:

١ ـ ماؤكم عذب لا يشبع منه الشاربون.

٢ ـ الحرُّ شديد يورث الظمأ.

٣ ـ طعامكم طيب ولذيذ أكثرنا منه فألهب الأكباد.

وهكذا من أمثلة المعاريض التي لا تحصر.

ألسنا نلاحظ أن الهدف المطلوب تحقيقه واحد في كلّ الأساليب السابقة، إلاّ أن الأساليب البيانية للإعلام بالهدف قد تفاوتت تفاوتاً كثيراً.

ومع تفاوت الأساليب البيانية، وارتقاء بعضها فوق بعض، نؤكّد أنه ربما كان الأدبي منها أصلح وأجدى من الأساليب التي هي أرقى، مع بعض المخاطبين، أو في أوضاع وأحوال خاصة، أو في موضوعات معينة، أو بالنسبة إلى أهداف خاصّة من الكلام. وعندئذٍ يكون الأدنى في أسلوبه البياني هو الأبلغ لتحقيق الهدف، كشأن أساليب التربية.

ومن أجل ذلك لا بدّ من النظر إلى الأسلوب البياني ومرتبته من جهة، وإلى ما يقتضيه الهدف ووضع المخاطب وحاله من جهة أخرى.

ومن هذا يتبيّن لنا أنّ الأساليب البيانية تختلف أنواعها اختلافاً كثيراً، وأن الأهداف من الكلام، وأوضاع المخاطبين وأحوالهم، والموضوعات العامة التي يجري فيها الكلام، والمضامين الفكرية التي يراد الدلالة عليها، والمناخات النفسية والاجتماعية التي يوجّه فيها الكلام، تختلف اختلافاً كثيراً أيضاً.

والبليغ حقاً هو الذي يحسن الملائمة بين أسلوبه البياني وبين الهدف الذي يقصده، والموضوع الذي يتحدث فيه، ووضع المخاطب الذي يوجه له كلامه، وحاله التي هو عليها، وسائر الأمور

التي يمكن أن يلائمها أسلوب من الكلام ولا يلائمها أسلوب آخر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الملائمة في الأسلوب البياني، ليست هي كلَّ شيء في تحديد الجمال الأدبي، بل توجد عناصر جماليّة أخرى كثيرة، قد يشتمل عليها الكلام أو لا يشتمل عليها مع مراعاة الملاءمة في الأسلوب البياني.

ونظرة في مختلف الأساليب البيانية تجعلنا نمرُّ على أسلوب العرض المباشر الجاف، فأسلوب العرض المباشر المغلّف بما يلطِّفه ويخفف جفافه، ونمر على الأسلوب الساذج البسيط، فما هو قريب منه. وقد يلطِّف العرض المباشر التشبيه والتمثيل فيجعله ملموساً بساتر، والمحسِّنات اللفظية، وأنواع من الزينة المعنوية، ودعم الخبر بالمؤكدات والشواهد، ودعم الطلب بالمبررات والترغيب والترهيب.

ثم نمرّ على أساليب العرض غير المباشر التي يدخل فيها التعريض، والتلميح، والكناية، والقصة، وضرب الأمثال، وترك صيغ الطلب إلى صيغ الخبر الذي يراد منه الطلب، إلى غير ذلك من الأساليب البيانية الكثيرة التي لا يُعرض فيها المطلوب بشكل مباشر، وقد يقترن أسلوب العرض غير المباشر بما يؤكد الخبر الذي تضمّنه الكلام، أو بما يحرِّض على تحقيق المطلوب في الكلام، كالترغيب والترهيب.

وأصحاب الذوق البياني الرفيع يحسنون استخدام الفنون البلاغية التي يذكرها علماء البلاغة، وفنوناً أخرى يبتكرونها، فالفنون البيانية لا تحصر، والفكر الانساني مؤهل لأن يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة، تهديه إلى خصائص الابداع الفني التي وهبها الله للانسان.

والدعاة إلى الله مطالبون بتدريب أنفسهم لاكتساب هذا الذوق

البياني، ولاكتساب المهارة في صناعة الكلام الرفيع، ثم هم مطالبون بتسخير أدبهم في دعوتهم إلى سبيل ربهم، اقتداء بنبيّهم ورسولهم محمد ﷺ، واقتباساً من المنهج القرآني في بلاغته العظيمة.

* * *

ثانياً: التنويع والتنقّل والتلوين:

ومن عناصر الجمال الأدبي الذي يزيد الجمال جمالاً، والحسن حسناًوبهاء، التنويع والتنقل والتلوين بين الصور والأشكال الجماليّة في الكلام.

إن التزام الأديب لطريقة واحدة من الجمال الأدبي يكررها باستمرار في كل كلامه أو في معظم كلامه، ممّا يجعل مشاعر سامعيه أو قارئيه تتبلّد تجاه هذا اللون من الجمال، فتفقد ما كانت تحسّ به من استعذاب وحلاوة وطلاوة، ويدبّ السأم إليها، ولو أن أدبه كان كالمنِّ والسلوى، لأمست مشاعرهم أمام التزامه الوتيرة الواحدة كنفوس بني إسرائيل.

لمّا أكثر طه حسين من استخدامه للون جميل في الكلام هو الاستفادة من عكس الكلام للدلالة على فكرة أخرى، غدا هذا اللون بعد حين مادة لتندّر بعض المقلّدين الساخرين.

وهذا العكس في الكلام هو ما كان على وزن العبارة المشهورة: كلام الأمير أمير الكلام.

ونقول في نظائرها:

* الجمال الأدبي وأدب الجمال.
* الطبع الحَسَن والْحُسْن المطبوع.
* شعراء العلماء وعلماء الشعراء.

* روائع النثر ونثر الروائع.

ومن التزام الوتيرة الواحدة المملّة ما نجده في مقامات الحريري رغم حلاوة بعضه لأول مرة، لكنّ التّنقُّل في الألوان الأدبية، والتنويع في استخدام العناصر الجمالية في الكلام، من الأسباب التي تجدّد إثارة الانتباه للإحساس بالجمال، وتجدّد الاستمتاع بلذة الأدب الجميل، وترفعه إلى مستوى الروائع، وتمنع تسلّل السأم والملل إلى نفوس المستمعين أو القرّاء.

إنّ التنقل مثلاً في النَّثْر من المتوازنات القصيرة، إلى المتوازنات الطويلة، إلى المتفاوتات الرشيقة ضمن نسق معجب جميل، أحبُّ إلى النفوس الحضارية الذوّاقة للجمال من الثبات على وتيرة واحدة منها.

ثم إذا استطاع الأديب أن يلائم بين المضامين الفكرية وبين الأسلوب الذي اختاره كان ذلك أكثر إعجاباً وإبداعاً.

وكذلك التنقل من الخبر، إلى التساؤل، إلى الجواب، إلى التمنِّي، فإلى الخبر، فإلى الحوار والمناقشة، فإلى الجدل، فالحماسة، فالمنطقية العقلية، فالعاطفة، فالحديث الهادىء، إلى غير ذلك من ألوان وفنون بيانية، مع شرط الملاءمة، وعدم التنافر الجمالي.

ومع التنقُّل ينبغي للأديب أن يكون قادراً على الاحساس بالتحولات النفسية لدى من يوجه له كلامه، ليختار من أساليب القول ما يلائم الحالة النفسية التي وصل إليها. إنّ هذه القدرة على هذا الاحساس، مع القدرة على التكيُّف السريع والانتقال إلى الأسلوب الأدبي الجديد الملائم، هي الوسيلة البارعة الموصلة إلى امتلاك الألباب والقلوب والنفوس بأدب رفيع.

ومهما كان الأديب أقدر على هذا التكيف، مع اختيار اللّون الأدبي الملائم، وأقدر على استخدام مختلف الأساليب في كلامه، والتّنقّل البارع بينها من غير تكلف ولا قفزات منفّرة، كان أكثر أدباً، وأرفع أسلوباً، وأقدر على امتلاك من يوجه له كلامه.

ولنا في هذا بكتاب الله العظيم أسوة رائعة، فمن خصائص الإعجاز القرآني التنويع البديع الرائع في الأساليب، مع ملاءمة كلّ نوع من أنواع الأساليب للمضمون الفكري الذي يراد بيانه في النظم القرآني المنزل.

* * *

ثالثاً ـ تزيين الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرى:

ومن عناصر الجمال الأدبي تزيين الفكرة المقصودة بالذات بأفكار أخرى عن طريق التمهيد أو المقارنة أو التذييل.

١ ـ فالتمهيد يكون بعرض أفكار تمهّد للأفكار المقصودة بالذات، وتزينها وتجعلها مقبولة.

كالتمهيد بمقولة إقناعية تتضمّن ضرورة العناية بالصحة، والمحافظة عليها، قبل التحذير من شرب الخمر، أو من شرب الدخان، أو نحو ذلك من الأمور الضارّة بالصحّة.

وكاستثارة عناصر الايمان قبل توجيه التكليف.

وكالتمهيد بعبارات تشعر بتكريم المخاطب والتلطّف معه، بحسب مكانته الاجتماعية بين قومه، ومن ذلك الديباجات التي يُقدّم بها الناس خطاباتهم للملوك والعظماء والرؤساء.

وأمثلة هذا التمهيد كثيرة في القرآن العظيم ومنها:

أ ـ قول الله لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حولك. فاعفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر. فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين (١٥٩)﴾.

فقول الله لرسوله: ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ﴾ تمهيد حلو في ثناء وتكريم، لتحذير ضمنّي من شيء غير واقع حتماً، ألا وهو الفظاظة وغلظ القلب الذي جاء بصيغة ﴿ ولو كنت فظاً غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولك ﴾.

ثم نلاحظ أن الجملتين معاً كانتا تمهيدين رائعين لتوجيه التكليف بقوله تعالى لرسوله: ﴿ فاعفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر ﴾.

ب ـ قول الله تعالى فى سورة (آل عمران ٣):

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين (١٦٤)﴾. إن هذه الآية بمضامينها قد كانت تمهيداً يهيء نفوس المؤمنين لتقبل تلويمهم على ما بدَر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب التي أصابتهم في أعمالهم الجهادية، بأسباب من عند أنفسهم، وهو ما جاء في الآية التالية للآية السابقة:

﴿ أَوَلمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتُم مثلَيْها قلتم: أَنَّى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)﴾.

جـ ـ وقد علّم الله موسى أن يُمهِّد لفرعون بمقدّمات العرض الرفيق جداً، قبل أن يوجِّه له الدعوة المقصودة، وهي أن يتزكّى أي يتطهّر من الكفر والطغيان والظلم والعدوان.

فقال له كما جاء في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل: هل لك إلى أن تَزَكَّى (١٨) وأهديك الى ربك فتخشى (١٩) ﴾.

فأدب الدعوة لعظيم بلغ به الأمر الى ادّعاء الربوبية، قد اقتضى اتّخاذ الحكمة في دعوته، بتقديم مقدّمات العرض الرفيق المهذّب جداً دلّ عليها في النص ﴿هل لك إلى أن ﴾.

لقد كان يكفي أن يقول له: أدعوك أن تزكّى. أو يكرّمه قليلاً بصيغة العرض الاستفهامي هل تتزكّى، أو يكرمه أكثر فيقول له: هل ترى أن تتزكى، أو نحو ذلك.

لكنّ الله علّم موسى أن يفرش لفرعون مقدّمات تكريم أكثر تناسب مكانة فرعون في قومه، وقد جاء التعبير عن هذه المقدِّمات الطويلة نسبياً بقوله: ﴿ هل لك إلى أن تزكّى ﴾.

فأطال المقدِّمات بحسب عادات القوم، واختصر المطلوب الأساسي، فقال ﴿تزكّى ﴾ بدل «تتزكى».

٢ ـ والمقارنة تكون بإلباس الفكرة المقصودة ثوباً من فكرة أخرى يتقبلها المخاطب أكثر من تقبُّلِهِ الفكرة المقصودة عارية مجرّدة.

وتطبيق ذلك يكون باستخدام الأساليب غير المباشرة التي سبق شرحها بتفصيل.

٣ ـ والتذييل يكون بعرض الأفكار المقصودة بالذات أولاً، وإتباعها بما يزيّنها ويجعلها مقبولة.

كالإتيان بالفكرة ثم بإتباعها بالاستدلال عليها استدلالاً برهانياً أو دون ذلك. أو بإتباعها بالوعد المحبوب ترغيباً بها، أو بالوعيد المكروه ترهيباً منها وتحذيراً. أو بإتباعها ببيان دواعيها المنطقية، أو

دواعيها الالتزامية، ومن الدواعي الالتزامية التذكير بعهد الايمان والاسلام، أو بسوابق الوعود والعهود، ونحو ذلك.

والأمثلة القرآنية على هذا النوع كثيرة جداً.

فمنها قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ولا يأتلِ أولوا الفَضْل منكم والسَّعَة أن يؤتوا أولي القربى والمساكينَ والمهَاجرين في سبيل الله. وليعفُوا وليَصْفَحُوا، ألا تحبّون أن يغفرَ الله لكم. والله غفور رحيم (٢٢)﴾.

فأمر الله بالعفو والصفح، ثم أتبعه بعرض فيه الوعد بالمغفرة لمن يعفو ويصفح. ونجد في القرآن آيات كثيرة مختومة بنحو قوله تعالى: ﴿إنّ الله يحب المتّقين﴾. ﴿إنّ الله يحب المُحْسنين﴾. ﴿إنّ الله يحب المُقْسطين﴾. ﴿إنّ الله لا يحب الخائنين﴾. ﴿إنّ الله لا يحب المفسدين﴾. ﴿إنّ الله لا يحب الكافرين﴾ مما يشير إلى الوعد أو الوعيد بعد بيان المطلوب من فعل أو ترك.

* * *

رابعاً ـ ضرب الأمثال:

ومن عناصر الجمال الأدبي الرفيع في الكلام ضرب الأمثال، بشرط أن تتوافر فيها الشروط الفنيّة للأمثال، وتستجمع الشروط الاساسية العامة للكلام البليغ.

ويشترط في ضرب المثل أن يكون له غرض بياني، لا أن يكون مجرد عبث في القول.

ولدى تتبُّعي للأمثال القرآنية وجدت أن أهم الأغراض التي يحسن أن يقصدها البلغاء هي الأغراض الأخلاقية والتربوية التي

هدفت إليها الأمثال القرآنية، وتتلخص بالأغراض الست التالية[1]:

الغرض الأول: تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المَثَل.

الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطابية، وقد يقتصر على مجرّد لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح، فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنة، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس أو تنفر منه.

الغرض الرابع: إثارة محور الطمع، أو محور الخوف لدى المخاطَب، ففي إثارة محور الطمع يتجه الانسان بمحرّض ذاتي إلى ما يراد توجيهه له، وفي إثارة محور الخوف يبتعد الانسان بمحرّض ذاتي عما يُراد إبعاده عنه.

الغرض الخامس: المدح أو الذم والتعظيم أو التحقير.

الغرض السادس: شحذ ذهن المخاطَب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته حتّى يتأمل ويتفكر ويصل الى إدراك المراد عن طريق التفكر.

والأمثال التي يدفع إليها هذا الغرض إنما يخاطب بها الأذكياء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي، وكبراء القوم.

---

(١) انظر كتاب «الأمثال القرآنية» للمؤلف.

أما الأغراض غير الأخلاقية فقد تجافت الأمثال القرآنية عنها، كالسخرية في مثل ابن الرومي إذ قال:

قَصُرَتْ أخادِعُه وطال قَذَاله ... فكأنه متربِّصٌ أن يُصْفعا

ومن شاء أن يتعلم فن ضرب الأمثال، فليهتد بهدي خصائص الأمثال القرآنية.

ولدى تتبعي للأمثال القرآنية اكتشفت من خصائصها الخصائص الست التالية:

الأولى: دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصُّورة التمثيلية.

الثانية: التصوير المتحرك الحي الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية، والحركات الفكرية، للعناصر الحيّة في الصورة.

الثالثة: صدقُ المماثلة بين الممثَّل والممثّل له.

الرابعة: التنويع في عرض الأمثال، مرة بالتشبيه، ومرة بالعرض المفاجىء وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يطابق كل جزء منه جزءاً من الممثَّل له، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة.

الخامسة: البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثَّل له، على اعتبار أن المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثّل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذْ حضرت صورة الممثّل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثَّل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

السادسة: قد يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط، وقد تحذف من الممثَّل له مقاطع أيضاً،

ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدل على المحذوف.

واجب الدعاة:

وعلى الدعاة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة أن ينتفعوا من هذا العنصر من عناصر الجمال الأدبي، ويهتدوا بهَدْي كتاب الله وهَدْي سنة رسول الله ﷺ في ذلك، فكم فيهما من أمثال رائعات.

وللقارىء أن يرجع إلى كتابي: «الأمثال القرآنية»[1].

* * *

خامساً ـ السطح والعمق

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبي الرفيع في الكلام أن يكون له سطح تفهمه العامة دون غموض ولا ارتباك ذهني، وأن يكون له مع ذلك عمقٌ تفهمه الخاصة بالتأمل والتعمُّق وإعمال الذكاء.

ولا يستطيع تقديم بيان رفيع مثل هذا البيان الذي له سطح وعمق إلّا نوابغ البلغاء الأذكياء.

والقدوة الهادية لهؤلاء النوابغ بلاغة القرآن المعجز. إنّ المتدبِّر لكلام الله عز وجل في القرآن يلاحظ عجباً، إنّه ينظر إلى آية فيفهمها، ويأخذ منها دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعاً عظيماً.

ثم تأتيه نفحات في تدبر آخر، فيفهم من الآية معاني جديدة لم ينتبه إليها في التدبر الأول، وهذه المعاني لا تتعارض مع ما فهمه في التدبر الأول إذا كان تدبراً صحيحاً. بل تعطيه إضافات متمِّمة لما كان قد تدبَّره من قبل.

---

(١) الأمثال القرآنية للمؤلف «عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني» طبع دار القلم بدمشق.

ثم كلما تعمَّق في التدبر تواردت عليه مفاهيم جديدة تتكامل بها لديه المعرفة المتعلقة بدلالة الآية.

والعمق في الكلام يتكون من أسباب، ومنها ما يلي:

الأول: عدم الإشارة باللفظ إلى الترابط المنطقي بين المعاني، أو إلى الترتيب الزماني أو المكاني بين الأحداث، أو غير ذلك من أمور مع إبقاء كل جملة في محلِّها الطبيعي.

ولو أنه جاءت الاشارة الصريحة إلى هذا الترابط، أو هذا الترتيب بلفظ دالٍّ، لخرج المعنى من العمق إلى السطح.

ولكن يفقد النص بذلك عاملاً من عوامل جدّته في نفس القارىء عند كل تدبر.

الثاني: الكنايات البعيدة ذات الدلالات المتتابعة.

الثالث: المحاذيف التي تحذف للايجاز، ويقتضيها معنى النص، أو يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل فيه، أو غير ذلك، ويبقى المعنى بعد حذفها صحيحاً، إلا أنه جزء من المعرفة التي يدلُّ عليها السطح والعمق معاً.

مثال: كنت أقرأ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ الشيطان يَعِدُكم الفقرَ ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفَضْلاً، والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وما يذّكر إلاّ أولوا الألباب (٢٦٩) ﴾.

فأفهم من هذا النص سطحه، وهو أن الشيطان يخوِّف الناس من الفقر حينما تتجه نفوسهم لبذل الصدقة، وأنه يأمرهم بالفحشاء، لإسقاطهم في الرذيلة. وأن الله عز وجل يدعونا إلى التوبة ويعدنا بالمغفرة وبفضل منه إذا صدقنا في توبتنا.

إن هذه المعاني التي دلَّ عليها سطحُ النصِّ معان صحيحة سليمة، متمشية مع المفاهيم القرآنية الأخرى، لكنّها ليست كلّ المعاني التي يمكن أن تفهم من النص.

وبعد نحو عشرين سنة أو أكثر ظهر لي هذا النص نفسه ظهوراً جديراً حين فتح الله عليّ فتدبرت عمقه، وتكشَّفت لي فيه محاذيف يقتضيها التناظر والتوازن والتكامل، ووضح لي أن تقديرها يكون على الوجه التالي:

الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في سبيل الله، إذ يعدكم الفقر على سبيل التخويف منه. ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضت منكم إسرافاً في البذل وتبذيراً.

والله ينهاكم عن الفحشاء وعن التبذير ويأمركم بالبذل في سبيله وفي وجوه الخير. ويعدكم إذا عصيتم واستغفرتم مغفرة منه، وإذا أنفقتم في سبيله أن يعطيكم ويخلف عليكم ويزيدكم فضلاً منه، والله واسع عليم.

فالعناصر المتقابلة التي يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل في النص نلاحظها في الميزان التالي:

الله جلّ جلاله	**الشيطان لعنه الله**
١ ـ أمر بالإنفاق في سبيله	١ ـ نهى عن الإنفاق في سبيل الله
٢ ـ نهى عن الفحشاء	٢ ـ أمر بالفحشاء
٣ ـ نهى عن الإنفاق والتبذير في وجوه الاثم	٣ ـ أمر بالإنفاق والتبذير في وجوه الإثم
٤ ـ وعد بالإخلاف والفضل مقابل الإنفاق في سبيله	٤ ـ وعد بالفقر وخوَّف منه في مجال الإنفاق في سبيل الله
٥ ـ وعد بالمغفرة ولوّح بالجزاء	٥ ـ شكَّك بالجزاء، ورغَّب في اغتنام العاجلة.

والمذكور أو المشار اليه في النص بعض هذه العناصر المتقابلة، أما سائرها فقد حذف، لدلالة مقابلها عليها، أو لدلالة النص بجملته عليها بمقتضى التوازن والتناظر والتكامل.

أما الأمر بالإنفاق في سبيل الله منها فقد جاء في الآيات السابقة لهذا النص.

وبَدَهي أن الحكمة توجب اتّباع العناصر التي جاءت في هداية الله، أمَّا اتباع العناصر المقابلة لها فهو نقيض الحكمة، وهو من ضلالة الشيطان، ولذلك قال الله تعالى في الآية الثانية من النص: ﴿يُؤْتي الحكمةَ من يشاء ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذَّكر إلّا أولوا الألباب﴾ وهم أصحاب العقول العميقة المتدبرة الواعية للحقائق.

وإذا كان الحكيم قد أوتي خيراً كثيراً، فمن حُرم من الحكمة فقد حرم من خير كثير. وإذا كان المتذكِّر المتّعظ بهذا هم أولوا الألباب وحدهم فمن لا يتذكر ولا يتعظ لا لُبَّ له، أي ليس لديه عقل يبحث عن عناصر الحكمة ويمسك بها، ثم يرشد إليها الأجهزة المهيمنة على السلوك في داخل الإنسان.

هذه المعاني كلها قد تواردت من العمق لا من السطح.

والعمق القرآني عمق معجز، لذلك سيظل في القرآن جديد يفهمه المتدبرون المتعمقون.

إن القرآن لا تفنى أعاجيبه ولا يَخْلَق على كثرة الردّ.

والسطح والعمق في القرآن شيء غير الظاهر والباطن الذي تدّعيه الباطنيّة كذباً وبهتاناً وافتراءً على الله ورسوله. إن الذي يقولون به خرافة يُقصد منها تحريف نصوص كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

ومن ميزة السطح والعمق في القرآن أن العمق يكمِّل السطح،

ولا ينقضه، ولا يتنافى معه.

وشأن المتدبِّر في القرآن كشأن الباحث في سطح البحر وعمقه.

ومن بلغاء البيان من يكون لبعض كلامهم سطح وعمق، إلّا أنّ العمق لديهم سهل الاستخراج وقد يتنافى مع السطح.

إنّ قول المتنبي لكافور الإخشيدي:

«لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا»

له سطح يمدح به كافوراً، لكن له عمقاً يسخر به منه.

* * *

سادساً ـ أوجه النص

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبي الرفيع في الكلام أن يكون له عدّة أهداف، وهذه الأهداف كلُّها مقصودة منه، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب بالكلام جماعة ذات فئات مختلفة، وعناصر متباينة.

فمن أمثلة النص ذي الهدف المزدوج أن يوجِّه ذو سلطان عام تهديده الشديد للذين يخالفون أوامر مبعوث من قبله للقيام بمهمة من المهمات السلطانية، إنّنا نلاحظ في هذا النص التهديدي هدفين معاً:

أحدهما: تهديد الذين يخالفون.

وثانيهما: رفع معنوية المبعوث، وشدُّ أزره وشحذُ همته للقيام بما بعث به على أفضل وجه.

وقد يكون الكلام مثلث الهدف، أو أكثر من ذلك، وكل صاحب علاقة يأخذ من النص ما يناسب حاله، ويكثر هذا في النصوص القرآنية، فقد يكون الكلام تهديداً وتوعُّداً للكافرين،

ووعداً للمؤمنين، وتربيةً وتأديباً وتسلية للرسول صلوات الله وسلامه عليه

* * *

سابعاً ـ الشعر وفنونه

ومن عناصر الجمال في الكلام أن يرضي الحسّ الموسيقي في الانسان، ويدغدغه بإمتاع.

إن للموسيقى وموازينها تأثيراً مستعذباً في النفوس، فإذا جاء الكلام موزوناً على بعض موازينها الحلوة المستعذبة اكتسب حلاوة.

ثم إذا توافرت في الكلام مع ذلك عناصر متلائمة من عناصر الجمال والكمال الأدبي ازداد الكلام حسناً وقوة تأثير في الناس.

إن الاشياء الجميلة التي تلامس مشاعر الانسان بمؤثراتها الحلوة من جانبين، هي أكثر تأثيراً فيه من التي تلامس مشاعره من جانب واحد. وكلما ازدادت الجوانب ازدادت قوة التأثير، حتى تصل إلى محاصرة الانسان من كل مشاعره الجسدية والنفسية والفكرية والوجدانية، فيفقد عندئذ كل مقاومته، ويستسلم استسلاماً تامّاً، مستغرقاً في لذّات المشاعر الحلوة.

إنه إذا اجتمع المنظر الجميل، والصوت الحسن، والرائحة الزكية، والطعم اللذيذ، والملمس الحلو الممتع، والراحة النفسية، وكان الحديث أدباً جميلاً رفيعاً، موضوعاً بقالب موسيقي شعري، فقد حاصر الجمال معظم مشاعر الانسان، وأخذ يهيمن عليها بمؤثراته الحلوة، حتى يسلبها كل مقاوماتها، فتستسلم استسلاماً تامّاً.

ولمّا كانت النفس الانسانية تطرب للموسيقى، وترتاح لموازينها الحلوة، وكان الشعر كلاماً يجري في بعض جداولها، وعلى بعض موازينها، كان للشعر تأثير حلو على النفوس الانسانية، ويظهر هذا حتى على الأطفال الصغار، الذين يظهر شعرٌ طفليّ على بعض جملهم التي يردّدونها أو يغنُّون بها.

ويتفاوت الناس في مدى إحساسهم بهذا النوع من أنواع الجمال في الوجود، وفي تذوقهم له، لذلك نلاحظ أنَّ بعض الناس يتأثرون بالشعر أكثر من بعض، مع وجود أصل التأثر عند كل الناس إلّا نادراً.

وبعض الناس لديه بالتكوين الفطري فطرة نظم الكلام على ميزان شعري.

وكلُّنا يعلم أن الكلام الموضوع في قالب ميزان شعري أسرع الى الحفظ، وأثبت في الذاكرة، وأسهل استدعاءً عند الحاجة.

فلا غَرْوَ إذن أن يكون الشعر عنصراً من عناصر الجمال في الكلام.

وهنا نقول: إن على أصحاب الأهداف النبيلة والدعوات الخيِّرة أن يحسنوا استخدام هذا اللون الجمالي من ألوان المؤثرات على النفس الانسانية، وأن لا يَدَعوا ساحته للشعراء الذين يتّبعهم الغاوون، الذين هم في كل وادٍ من أودية أهواء النفس وشهواتها، وأودية الضلال والفساد في الأرض يهيمون، والذين هم يقولون ما لا يفعلون.

إن الشعر سلاح من أسلحة الأدب، وهو وسيلة حياديّة بذاتها، إن استخدمت في الخير كانت خيراً، وإن استخدمت في الشر كانت شراً.

وبوسع المصلحين ودعاة الخير ممَّن لديهم القدرة على كتابة

الشعر الرفيع أن يلبَسوا درع قول الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):
﴿ إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بَعْدِ ما ظُلموا. وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون (٢٢٧)﴾.

بعد أن وصف الله واقع حال معظم الشعراء بقوله تعالى:
﴿ والشعراء يتَّبعهُمُ الغاوون (٢٢٤) ألم تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦)﴾.

فالشعراء الذين يهيمون في كلّ وادٍ من أودية الضلال والهوى، والكذب والطعن في الناس ظلماً، والمدح لبعض الناس استجداء، والانتصار بغير حق، ويتبجّحون بشعرهم كذباً وزوراً، فيصفون أنفسهم بالشجاعة وهم الجبناء، وبالكرم وهم البخلاء، وبالعقل وهم السفهاء، وبالعفّة وهم الفسّاق، ويتحدثون عن مغامرات غرامية لم تحدث، فيفضحون بأكاذيبهم محصنات عفيفات، ويفتخرون بالحسب والنسب وهم صعاليك لا حسب لهم ولا نسب، ويَعِدون ولا يَفُون، ويعاهدون ويغدرون، ويظهرون صدق الحب وهم الطامعون، فهم يقولون ما لا يفعلون.

هؤلاء بزخرف الشعر الذي يملكون القدرة على صناعته والتأثير بفنونه إنّما يتَّبعهم الغاوون من الناس الذين سَفِهوا نفوسَهم، فخدعتهم الكلمة المزخرفة ولو كانت باطلاً وزوراً، ودعوة إلى الشعر والفساد في الأرض.

ومن هؤلاء شعراء الحانات، والمواخير، والليالي الحمراء، وشعراء الإباحية، وشعراء المذاهب الضالّة الهدّامة.

أما الشعراء الذين يلبسون درع الاستثناء القرآني فقد برز منهم

في عصر الرسول ﷺ «حسّان بن ثابت ـ وعبد الله بن رواحة ـ وكعب بن مالك».

واتخذهم الرسول ﷺ أسلحة بيانية أدبية ضدّ شعراء أهل الكفر والشرك بالله، وكان يستحثهم أحياناً لمجاهدة الكافرين والمشركين بشعرهم.

وظهر في العصور الاسلامية التالية شعر إسلامي كثير، ولكن ظلت نسبة المبدعين من فحول الشعراء في جانب الذين يتّبعهم الغاوون هي النسبة الأكبر، أمّا الذين لبسوا درع الاستثناء القرآني فقد كان فيهم موهوبون قدرات عالية تؤهلهم لأن يكونوا من فحول الشعراء، إلا أنّهم فيما أرى آثروا الإبداع في العلوم الاسلامية والاشتغال بها عن توجيه كل اهتماماتهم للشعر، فلم يبرّزوا به كما برّز الآخرون.

وفي ظنّي لو أراد الإمام الشافعي أن يكون شاعراً لبزّ أبا نواس في الشعر. ولكنه آثر أن يكون عالماً فقيهاً.

وقد تكون شدة الحذر من الانزلاق بالشعر إلى فئة الذين يتَّبعهم الغاوون قد كفَّت كثيراً من الذين يملكون في فطرتهم القدرة الشعريّة العالية عن أن يخوضوا بحور فنونه ويستخدموه للدعوة، ويبلغوا فيه إلى مستوى فحول الشعراء.

وفي مناسبة الحديث عن الشعر الإسلامي يطيب لي أن أثني على كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية، إذْ وجهت عنايتها لجمع شعر الدعوة عن طريق البحوث الجامعية التي تشجِّع على كتابتها بعض طلابها، ضمن البحوث المطلوبة للتخرج، وقد طبعت قسماً من هذه البحوث الجيدة، بإشراف أساتذة متخصصين ممن لهم اهتمام صادق بأدب الدعوة الإسلامية، وقد اطلعت على بعضها بإشراف

الأخ الصديق الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، فجزاهم الله خيراً.

* * *

ثامناً ـ الغرض الفكري البياني من الصورة البلاغية المختارة

ليس يكفي إيراد الكلام وفق صورة من الصور البلاغية التي يذكرها علماء البلاغة، بل لا بد من ملاحظة غرضٍ فكريّ بياني تؤديه هذه الصورة المختارة.

إن نسبة الجمال في الكلام ترتقي جداً حينما ندرك أن الأديب قد اختار الصورة البلاغية التي أوردها في كلامه لغرض فكريٍّ زائد على مجرد اختيار صورة جمالية بلاغية يذكرها علماء البلاغة.

إن الصورة البلاغية مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكري بياني تهدف إليه في البيان، باستثناء عناصر الجمال اللفظي أو الموسيقي، والزينات التي لا تحتمل أداء غرض فكري بيانيّ.

ولدى بحث أي جانب بلاغي في كلام رفيع من كلام البلغاء ينبغي البحث لاستجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغية، فليس المهم مجرد الإشارة الى الصورة البلاغية، إنما المهم بعد ذلك هو استجلاء الغرض الفكري البياني من ورائها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فسالت أودية بِقَدَرِها﴾ إن الصورة البلاغية في هذا النص تتلخص بإسناد السيلان الى الوادي، مع أن المراد سيلان الماء فيه. فهل انتهينا من البحث؟.

إن الذي يملك الحسَّ الأدبي الرفيع يقول: لا. لأنه يتساءل: ولماذا أسند السيلان إلى الوادي بدل إسناده إلى الماء؟ وما الداعي إلى ذلك وما هو الغرض منه؟.

وبالتأمل يجد الجواب على تساؤله، إذ يرى أن الغرض الفكري البياني من هذا الإسناد هو إعطاء السامعِ أو القارىء صورة تشعر على سبيل التخيّل بأن الوادي يسيل فعلاً لكثرة تدفق الماء وارتفاع نسبته في جانبي الوادي.

وهذه الصورة قد تحدث في وهم الانسان أوفي تخيلاته حينما يشاهد هدير الماء الكثير المتدفق الذي يغمر قدراً كبيراً من الوادي.

فالتعبير إذن تصوير صادق لما يجري في التخيل لدى مشاهدة الحدث المادي.

إذن ينبغي للأديب أن يراعي ذلك في كلامه، وعليه أن يلاحظ باستمرار أنّ كبار البلغاء حينما يعطفون في كلامهم عن مجراه إلى صور بلاغية يختارونها إنما يفعلون ذلك لأغراض فكريَّة بيانية يهدفون إليها، ولا يكتفون باختيار الصور البلاغية لمجرد أنها صور بلاغية، وهذا ما يعطي كلامهم ارتقاء أدبياً عظيماً، وجمالاً مكثَّفاً مضاعفاً.

تاسعاً: الجمع بين الأشياء المتضادّة

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام الجمع بين الأشياء المتضادّة في صورة كلامية متناسقة.

وذلك لأن الأضداد سريعة التخاطر في الأذهان، فإيرادها قد يحدث ارتياحاً جماليّاً في النفس.

وفي الصور الحسية مشاهد للتضاد مثل ذلك، فمن المشاهد الحسيَّة الجميلة مشهد جبل أجرد إلى جانب وادٍ أخضر فيه جنّات ألفاف. ومشهد قصر راسخ ثابت البنيان ضمن عاصفة هوجاء تقتلع ما على الأرض من أشجار وأكواخ وأشياء كثيرة. ومشهد سفينة ثابتة

كالطَّوْد في خضمّ بحرٍ هائج وعاصفة بحريّة ثائرة. ومشهد وجه منير كالبدر ضمن شعر منسابٍ كالليل.

والحسّ الذوّاق للجمال يتحكّم بإدراك التناسق أو التنافر في الصورة التي تجمع بين المتضادّات، إذ ليس كلّ جمع بين المتضادّات يحدث هذا الارتياح النفسي.

فمثلاً: لا ترتاح النفوس لدى ذكر ما يثير تقزّزها ونفورها، وإن كان ذلك في مقابل ذكر ضدّه أو نقيضه، إنّ ذكر المحزنات لدى ذكر المفرحات أمرٌ مستنكر تنفر منه الطباع، ما لم يكن عرضاً لمبادىء عامة لها طابع التأمّل الفلسفي، وإنّ ذكر المستقذرات في مقابل ذكر الطيبات أمرٌ مستهجن تنفر منه النفوس ولا ترتاح له. وهكذا.

فمن أمثلة الكلام المزدان بعنصر الجمع بين الأضداد الذي يحدث إعجاباً وارتياحاً في النفوس، ولا يحدث نفوراً ولا انزعاجاً ولا تقزّزاً، ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (النجم ٣٥):

﴿وأنّه هو **أضحك وأبكىٰ** (٤٣) وأنّه هو **أمات وأحيا** (٤٤) وأنّه خلق الزَّوجين **الذكر والأنثى** (٤٥) من نُطْفة إذا تُمْنَى (٤٦)﴾

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الحج ١٧):

﴿ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علم ويتبعُ كلّ شيطان مَريد (٣) كُتِبَ عليه أنّه من تولّاه فأنّه **يُضلّه ويهديه** إلى عذاب السَّعير (٤)﴾

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الروم):

﴿ولكنّ أكثر الناس **لا يعلمون** (٦) **يعلمون** ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧)﴾

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿ثمّ لا يموتُ فيها ولا يحيى (١٣)﴾

* * *

عاشراً: مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره، بالمقدار الذي يحدث الارتياح ولا يورث الملل.

إنّ مما يحدث المسرّة والارتياح في الكلام أن يتابع الأنفس فيما تسترسل به من أفكار تتداعىٰ، ويجلب بعضها بعضاً، ويمسك بعضها بأعناق بعض، بشرط عدم الاسترسال الممل. إنّ المَلَلَ متى بدأ يدبّ إلى النفس بالاسترسال مع أفكارها المتعانقة، كان قطع هذا الاسترسال والانتقال إلى عنصر المفاجأة هو الأرفع أدباً والأكثر تأثيراً، لأنّه يقدّم صورة جمالية جديدة، بشرط أن تكون المفاجأة حلوة، لطرافتها أو غرابتها أو بُعد خطورها على الأذهان، أو غير ذلك.

وكثيراً ما يكون قطع الاسترسال وترك النفس لتستكمل بذاتها بقيّة العناصر هو الأجمل لديها، والأحب لمشاعرها.

والأديب ذو الحسّ المرهف يستطيع أن يدرك متى يحسن الاسترسال مع تداعي أفكار المخاطب أو القارىء، ومتى يحسن قطع الاسترسال، ومتى يحسن الانتقال لأمر مثير بالمفاجأة الحلوة المعجبة.

فمن أمثلة المسايرة الحلوة لتداعي الأفكار قول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿أَلَمْ ترَ أنّ اللّهَ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها. ومن الجبال جُددٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانُها وغَرابيبُ

سود (٢٧) ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماءُ. إنّ الله عزيزٌ غفورٌ (٢٨)﴾.

إنّ الحديث عن اختلاف الألوان في الثمرات يستدعي في الأفكار تصوّر اختلاف الألوان في الجبال، لأنهّا هي التي تبرز في اللوحة الفنيّة أوّلاً بعد النظر إلى الثمار في أشجارها، فيخطر اللّون الأبيض منها على اختلاف درجاته، فالأحمر على اختلاف درجاته، ثمّ الأسود، ثمّ ينتقل الذهن بالتداعي الفكري إلى الألوان في الدوابّ والأنعام. هذا هو الأمر الغالب بالنسبة إلى واقع أحوال الناس.

ولا يخفى أنّ متابعة الأفكار في تداعيها الذاتي كثيراً ما يكون مريحاً للنفوس، ومُعْجِباً لها، فهو إذن من عناصر الجمال الأدبي، إذا استوفى شروطه، وخلا من المنفِّرات أو المزعجات، ولم يطل حتى يحدث الملل والسأم.

ومن الأمثلة أيضاً قول الله تعالى في سورة (الغاشية ٨٨):

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رُفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نُصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سُطحت (٢٠)﴾.

ففي هذه الآيات تصوير للوحة فنّيّة متحركة، تبدو بالتتابع كما هي في النص، بالنسبة إلى الناظر الجالس في الصحراء، إذا مرّت بعيداً عنه قافلة من الإبل.

إنّ أول ما يلفت نظره لدى مشاهدة هذه اللَّوحة من مشاهد الطبيعة، أن يتركز انتباهه في مشاهدة قافلة الإبل، وتكون القافلة بالنسبة إليه هي بؤرة المشهد، لأنها هي المتحرك الآسر الجالب للانتباه، وتلقائيّاً ينتقل نظره بعد ذلك إلى الأفق، من مستوى نظره إلى أسنمة الجمال إلى الأفق، حتى إذا ملأ نظره من الأفق نزل ليرى

الجبال من بعيد، ثم بعد ذلك ينخفض نظره ليركّز انتباهه في مشاهدة الأرض المنسطحة.

وعلى وفق هذا المشهد الذي يتكرر لدى كثير من سكان الصحراء وعابريها جرى تصوير الصورة الكلامية، وقد وافق التسلسل فيها التسلسل الذي يحدث غالباً عند الناس، لدى مشاهداتهم لمثل هذه اللوحة في الصحراء.

وهذا من عناصر الجمال الفني لا محالة.

* * *

حادي عشر: نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها الطبيعية وإضفاؤها على غيرها

قد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها الاصطلاحيّة أو الطبيعيّة وإضفاؤها على غيرها، لوجود ما يستدعي في التخيّل هذا النقل، وإن لم يكن في الواقع كذلك.

فمن ذلك نقل صفة الحالّ في الشيء وإضفاؤها على ذلك الشيء، كقولنا: «جرى النهر» مع أنّ الجريان إنما هو للماء في النهر، ولكنّ التخيّل ربمّا أحسّ لدى مشاهدة جريان الماء في النهر أنّ النهر يجري أيضاً مع الماء.

ومن بديع هذا النقل قول الشاعر:

وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

فقد أضفى صفة السيلان على الأباطح، وهي لما يمرّ فيها، بعد

أن أضفاها على أعناق المطيّ وهي للماء، لأنّ التخيّل يلحظ صفة سيلان الماء حينما يشاهد أعناق الإبل تتموّج وهي تسير على الأباطح.

ومن بديع هذا النقل أيضاً قول الله تعالى: ﴿فسالت أودية بقَدَرِها﴾ ففيه إضفاء صفة السيلان على الأودية، وهي لماء السيول فيها، لأن الأودية حينما تسيل فيها السيول العارمة توقع في خيال المشاهد المندهش أن الأودية والجبال أنفسها تسيل مع حركة المياه الجارفة فيها.

ومن بديع هذا النقل أيضاً قول الرسول ﷺ:

«ومَنْ بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه»

ففيه إضفاء صفة التبطيء على العمل، وهي في الأصل صفة للكسل أو التقصير في العمل، ولكنّ التخيّل إذا رأى العامل المقصِّر الكسول تصوّر أن عمله هو الذي بطّأ به، إذ العمل هو الحركة المشهودة، أمّا الكسل أو التقصير فهما لا يشاهدان نظراً، وإنما يدركان فكراً. وفيه إضفاء صفة الإسراع أو عدمه على النَّسب، لأنّ الناس يتخيلون أن من لم ينل السبق بعمله ربما ناله بنسبه، فيُعطىٰ ذو النسب الكريم منزلة السبق لمجرّد نسبه.

ويدخل في هذا العنصر نقل صفة الحيّ وإضفاؤها على الذي لا حياة له، ونقل صفة الذي لا حياة له وإضفاؤها على الحيّ، لأنّ التخيل يلاحظ في المنقول إليه لمحات من صفة المنقول منه، ومن هذا استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنه ناطق يتكلّم.

والأمثلة على ذلك كثيرة في أبلغ الكلام، ومنها الأمثلة القرآنية التالية:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿يوم نقول لجهنّم: هل امتلأْتِ. وتقول: هل من مزيد (٣٠)﴾

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (فصِّلت ٤١):

﴿ثمّ استوى إلى السماء وهي دُخَان فقال لها وللأرض: اتيا طَوْعاً أو كَرْها. قالتا: أتَيْنا طائعين (١١)﴾.

ففي هاتين الآيتين استنطاق الجماد ومخاطبته، وهذا من نقل صفة الحيّ وإضفائها على الذي لا حياة له.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨) في سياق قصة موسى والخَضِر عليهما السلام:

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبَوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جداراً **يريد أن** ينقضّ فأقامه، قال: لو شئت لاتخَّذت عليه أجراً (٧٧) ﴾.

ففي هذا نقل صفة الإرادة التي هي للحيّ المريد، وإضفاؤها على الجدار الذي لا حياة له ولا إرادة، لأنّ صورة الجدار هذا تحدث في تخيّل الناظر إليه أنه كعجوز من الناس هَرِم، وهو يريد أن يستريح من قيامه ويسقط إلى الأرض انقضاضاً كانقضاض الطائر راكعاً أو ساجداً أو مستلقياً، فأعطاه صفة الإرادة وصفة انقضاض الطائر.

٤ ـ وقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم. **كأنهم خُشبٌ مُسَنّدة**. يحسبون كلّ صَيْحَة عليهم. هم العدوّ فاحذرهم. قاتلهم الله أنىّ يُؤفكون (٤) ﴾.

ففي هذا النصّ نقل صفة الجامد الذي لا حياة له عن طريق التشبيه الصريح، وإضفاؤها على المنافقين الأحياء الجالسين المستندين إلى جدار مجلس الرسول بأجسامهم المهيبة، لأن حالتهم النفسية

المنصرفة كلّياً عمّا يجري حولهم توقع في التخيّل أنّهم بمثابة الْخُشُب المسنّدة.

* * *

وقد يكون نقل الصفة لغرض الإيجاز، أو الايجاز مع التعميم، كنقل الصفة من أهل المكان إلى المكان، ومن أهل الزمان إلى الزمان، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدّقُ الذي بين يديه ولتنذرَ أمَّ القُرى ومَنْ حولها. . . (٩٢) ﴾.

أي: لتنذر أهل هذا البلد ومن حولهم من أهل الأرض.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من **قَرْن** هم أشدّ منهم بَطْشاً (٣٦) ﴾.

أي: وكم أهلكنا قبلهم من أقوام في قرون مضت هم أشدّ منهم بطشاً.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (يوسف ١٢) حكاية لقول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ واسأل **القرية** التي كنّا فيها **والعير** التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون (٨٢) ﴾.

أي: واسأل أهل القرية التي كنّا فيها، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها.

* * *

من استعراض أمثلة هذا العنصر، والصور التي يمكن أن تدخل

فيه، لا بدّ أن يظهر لنا أنّ ألواناً بلاغية كثيرة تدخل فيه، كأنواع التشبيه، والاستعارات، والمجاز العقلي، والمجاز المرسل، لأنها قائمة على نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها، وإضفائها على غيرها، استناداً إلى أنّ خيال الأديب يسمح له بهذا النقل، إمّا للشبه بين المنقول منه والمنقول إليه، أو للتجاور، أو للارتباط السببي، أو لغير ذلك.

ولا بد أن نعلم بأنه ليس كلّ نقل من هذا القبيل يقدّم صورة جمالية تزين الكلام، وترفع قيمته الأدبية، بل لا بدّ مع ذلك من أن تكون الصورة نفسها بريئة ممّا يشوّه جمال النقل، وأن يتضمن النقل فكرة تثير الإعجاب والارتياح النفسي، وأن يكون ذا هدف بلاغي، فالأعمال اللفظية الشكلية الخالية من الأهداف البلاغية بمثابة رسوم ساكنة لا حياة فيها ولا حرارة.

* * *

ثاني عشر: البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية والأفكار.

وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسّي، أو بالمبالغة في تصويرها، أو تصوير آثارها ولوازمها، أو غير ذلك.

أمثلة

١ ـ قول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون ٦٣):
﴿ يحسبون كلّ صَيْحة عليهم... (٤) ﴾.

ففي هذا إبراز بارعُ جدّاً وتصوير بديع لحالة الذُّعر الشديد

الذي يعانون منه في داخل أنفسهم، وقد دلّ على هذه الحقيقة المبالغة، لأنّ الخائف المذعور جدّاً قد يسمع صياح المنجد له فيتصوّره صياحاً ضدّه.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢) يصف حال أناس داهمهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق.

﴿ أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق. **يجعلون أصابعهم في آذانهم** من الصواعق حَذَرَ الموت. واللّهُ محيطٌ بالكافرين (١٩) ﴾.

ففي المبالغة بأنّهم يجعلون أصابعهم في آذانهم إبرازٌ لصورة حالتهم النفسية، التي تدفعهم إلى سدّ مسامعهم بكلّ أصابعهم، فلو أنّهم استطاعوا إدخال كلّ أصابعهم في آذانهم لفعلوا.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (مريم ١٩) حكاية لقول زكريا عليه السلام إذ نادى ربّه نداءً خفيّاً:

﴿ قال: ربّ إني وهَنَ العَظْم مني، **واشتعل الرأس شَيْباً**، ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً (٤) ﴾.

ففي تصوير تسارع انتشار الشيب في رأسه حتى عمّ الرأس بحالة الاشتعال الذي يتسارع انتشاره في الهشيم، براعة تدلّ على الحالة النفسية التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكويه بنار اليأس التي أخذ لهبها ينتشر شيباً في شعر رأسه.

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ وفتحنا **أبواب السماء بماءٍ منهمر** (١١) **وفجّرنا الأرض عيوناً** فالتقى الماء على أمر قد قُدر (١٢) ﴾.

ففي هذا النص تصوير بارع يبرز مشهد انصباب الماء من

السماء، حتى كأنّ أبواباً فيها هي بمثابة سدود قد فتحت فانصبّ الماء المنحصر وراءها. ويبرز مشهد تفجّر الماء من مواضع لا تحصى من الأرض، حتى لكأنّ الناظر إلى الأرض يرى أنها كلّها قد صارت عيوناً، يتفجّر الماء منها تفجرّاً، ليلتقي في بحرٍ طامٍ خضمّ لا يبقي ولا يذر.

ومن البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية، والأفكار، تجسيدها في أمثلة حسيّة ماديّة، كتمثيل العلم بالنور، والجهل بالظلمات. وكتمثيل الكفر بالعمى، والإيمان بالبصر. وكتمثيل القرآن في هدايته بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درّي.

قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ اللهُ نورُ السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكبُ دُرِّيٌّ يُوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ، يكاد زيتُها يضيء ولو لم تَمَسْه نار، نورٌ على نورٍ، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثالَ للنَّاس، والله بكل شيء عليم (٣٥) ﴾.

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً لنور القرآن المعنوي بمصباح أرضي من صنع الناس، ذي نور صافٍ من أيّة شائبة، وهذا النور يتلألأ كالكوكب الدرّي، والقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطرَة من بحر، وكذلك نور المصباح بالنسبة إلى سائر ما خلق الله من نور في الكون الكبير.

ومن تجسيد المعاني والمشاعر والأحاسيس في أمثلة حسيَّة ماديّة ما في الاستعارات التالية: إعصار الهوى. عبير الوجدان. بَرْد اليقين. نار الحب. رياح العاطفة الشجيّة، حلاوة الإيمان، إلى غير ذلك من تعبيرات.

ثالث عشر: احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر، اعتماداً على أنه لمّاح تكفيه الإشارة الخفيفة والخفية، أو بترك الإطناب والشرح، واللجوء إلى الايجاز والرمزية.

ويدخل في هذا الكنايات، ورموز الأقوال، والتلميحات، والمعاريض، ونحو ذلك.

ولا ريب أن من احترام فكر المخاطب وتقديره الإيجاز له في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه، إذا كان هو أهلاً لذلك، ويحسن هذا الإيجاز جدّاً إلى حدّ الرمز في مواقف خاصة، منها أن يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده، مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه.

ومن روائع التلويح إلى المعاني بالإشارات التي لا تفهم إلّا بذكاءلمّاح، استعمال لفظة الكفّار المرادفة للفظة الزرّاع في قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧)

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ، ولهوٌ، وزينةٌ، وتفاخرٌ بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد؛ كمثل غيثٍ أعجب **الكفّار** نباتُه، ثم يهيجُ فتراه مصفرّاً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرة من الله ورضوانٌ. وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغُرور (٢٠) ﴾.

فقد استعملت هذه الفظة «الكفار» المرادفة في معناها هنا للفظة «الزرّاع» بدل استعمال لفظة «الزرّاع» تلويحاً بأنّ مقابل الزرّاع في المثل هم الكفّار في الممثّل له، فالمعجبون بزينة الحياة الدنيا المغرورون بها هم الكفار، ويقابلهم في المثل الزرّاع الذين يعجبهم النبات إذا نزل عليه الغيث فاخضرّ وأنبت.

ولما كانت تطلق في اللّغة لفظة «الكفّار» على «الزرّاع» لأنهم بزرعهم يدفنون الحبّ في الأرض فيسترونه، والكفر في اللّغة هو الستر، اختيرت لفظة «الكفّار» هذه بالذّات، لتدلّ على الزرّاع في مكانها التي استعملت فيه، ولتلوّح بأنّ مقابلهم في الممثّل له هم الكفّار بيوم الدين.

ويزيدنا ثقة بأن اختيار هذه اللّفظة هنا كان مقصوداً، لتحمل هذا التلويح الذي لا يُتَنبّه له إلا بذكاء لمّاح اختيار كلمة «الزرّاع» في موقع آخر من القرآن، لأنّ ذلك الموقع لا حاجة فيه إلى مثل هذا التلويح، وهو ما جاء في وصف أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، كما روت لنا سورة (الفتح ٤٨) إذ قال الله تعالى:

﴿ ومَثَلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه، يُعجب **الزرّاع** ليَغيظَ بهم الكفّارَ (٢٩) ﴾.

فقد استعملت هنا لفظة «الزرّاع» لأنّ مقابلها في الممثّل له ليسوا بكافرين، بخلاف «أعجب الكفار نباته».

* * *

رابع عشر: تقريب الصورة الغائبة بوضعها في صورة مشهودة النظير أو متخيّلة

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صورة متخيَّلة في أذهان المخاطبين.

فمن تقريب الغائب بوضعه في صورة مشهودة النظير ما جاء في القرآن والسنّة من تمثيلٍ أو تسميةٍ لما في الدار الآخرة من أحوال وأحداث ومكوّنات.

ففي الصحيح عن ابن عباس أنّ النبي (ﷺ) قال: «ليس في الجنّة مّما في الدنيا إلّا الأسماء».

ومن تقريب الغائب بوضعه في صورة متخيّلة في أذهان المخاطبين، وصف طلع شجرة الزقوم بأنه يشبه رؤوس الشياطين، وهو ما جاء في سورة (الصافات ٣٧) بقول الله تعالى:

﴿إنها تَخْرُج في أصل الجحيم (٦٤) طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين (٦٥)﴾.

طَلْعُها: أي ثمرها.

ففي أخيلة الناس صورة بشعة مرعبة لرؤوس الشياطين، فجاء تقريب صورة طلع هذه الشجرة الخبيثة، بأنه يشبه أبشع وأقبح صورة تتخيّلونها، وهي رؤوس الشياطين.

خامس عشر: الاتقان في إبراز دقائق الصورة

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام الاتقان في إبراز دقائق الصورة، ماديّة كانت أو غير ماديّة، وذلك لدى رسمها في الصورة الكلاميّة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل جميل وواضح.

ويزيد الصورة جمالاً ترك جوانب فيها يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه، مع إيجاد المنافذ أو الإشارات التي يمكن الانطلاق منها إلى هذه الجوانب المتروكة، كالرمز، والإشارة الخفية، وما يستتبعه الكلام باللزوم الذهني، وغير ذلك.

ونلاحظ هذا العنصر الجمالي في قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ووجد الله عَند فوفّاه حسابَه، واللّهُ سريع الحساب (٣٩) أو كظلماتٍ في بحرٍ لجُيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ، إذا أخرج يده لم يَكَدْ يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (٤٠) ﴾.

القيعة: كالقاع هو ما استوى من الأرض.

لجُيّ: أي عظيم عميق.

وفي قوله تعالى عقب النصّ السابق بآيتين:

﴿ أَلَمْ تَرَ أنّ الله يزجي سحاباً، ثم يؤلِّف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله، وينزّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء، يكاد سَنَا بَرْقه يذهب بالأبصار (٤٣) ﴾.

يزجي: يسوق برفق.

ركاماً: أي بعضه فوق بعض.

الوَدْق: المطر.

سنا: ضوء.

ألسنا نلاحظ في هذه الأمثلة الثلاثة إتقاناً عجيباً في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح جميل، ومع ترك جوانب في الصورة يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه.

فالصورة في المثال الأوّل قدّمت أعمال الكافرين على شكل سراب، يراه الظمآن السائر في الصحراء وهو بعيد عنه ماءً، فيسعى إليه ليشرب من مائه، ويطفىء ظمأه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، لأنه كان انعكاس أشعةٍ تخُيِّل للناظر إليه من بعيد أنه ماء.

وكذلك حال الكافر الذي يقدم أعمالاً يظنّ أنها تُسعدهُ في دنياه، أو تنفعه في آخرته، وما هي في الحقيقة إلّا بمثابة سراب، وهو إذا وصل إلى موطن المحاسبة والجزاء على الأعمال، لم يجد أعماله شيئاً، لأنّها لم تكن ثمرة إيمان بالله واليوم الآخر، بل وجد الله عنده هو الذي له الحكم والأمر، وبيده الحساب والجزاء، فوفّاه حسابه بعدله وحكمته، فحاسبه على كفره، فسقط بالمحاسبة على الكفر كلّ عمل صالح كان قد عمله، لأنه لم يكن قائماً على أساس مقبولٍ عند الله.

والصورة في المثال الثاني صوّرت الحالة النفسيَّة والفكرية والقلبية للذين كفروا، بعد أن تركوا نور الهداية الربّانية، بحالة من هو في ظلمات قاع بحرٍ عميق، فوقه أمواج في العمق تزيد الظلمة، فوقها أمواج في السطح تضاعف الظلمة، فوقها سحاب يزيد الظلام ظلاماً، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها لشدّة الظلمة.

ومن كان كذلك فلا بدّ أن يسلك مسالك المهالك.

وكذلك حال الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديد الغاية من أعمالهم، وفيما يقرّرون من أسباب لذلك. إنهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبهم مظلمة بالكفر، ونفوسهم تائهة في بحر لُجيّ من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارهم تسبح في ظلمات أسباب لذّات الحياة الدنيا، وإرادتهم تتخبّط تحت كلّ هذه الظلمات.

والصورة في المثال الثالث رسمت حركة السُّحب الخفيفة الموزّعة، وكيفية سوقها الرفيق، ثم رسمت التأليف بينها وتجميعها، حتى تغطّي ما فوقها من سماء، ثم رسمت تكديس بعضها على بعض حتى تتراكم وتكون كالجبال القائمة بين السماء والأرض.

ثم انتقلت الصورة إلى رسم خروج حبّات المطر من خلال

السحاب المتراكم، وتركت للخيال سائر الظواهر التي تحدث، ليتمّها بنفسه من رعد وبرق ورياح.

ثم انتقلت إلى ظاهرة نزول البَرَد بدل المطر، وألمحت إلى أنّ السحاب المتراكم يكون في هذه الحالة بمثابة جبالٍ من بَرَدٍ مجتمع بعضه إلى بعض، إذْ قد جمَّدت البرودة وحدات مائية فيها فكانت بَرَداً.

ولما كان المطر أقرب إلى أن يكون ظاهرة رحمة، والبَرَد أقرب إلى أن يكون ظاهرة عذاب، مع احتمال خلاف ذلك في كلٍّ منهما، رتّبت الآية على كُلٍّ منهما قوله تعالى: ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء ﴾. أي: رحمةً كان أو عذاباً.

ثمّ رسمت الصورة لمحة من ظاهرة البرق، فقال تعالى: ﴿ يكاد سَنَا بَرْقه يذهب بالأبصار ﴾.

فكم في هذه الأمثلة من إتقان في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب منها يستطيع الخيال أن يستكملها بنفسه دون عناء.

* * *

ومن ترك ما يستكمله الفكر بنفسه في الكلام، ما نلاحظه في الأمثلة القرآنية التالية:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣) :

﴿ لو أن قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قطّعتْ به الأرضُ أو كُلّمَ به الموْتى. بل لِلّه الأمرُ جميعاً (٣١) ﴾.

أي: لكان هذا القرآن. فقد ترك في هذه الآية جواب «لو» لأنّ المخاطب أو القارىء المتدبر سيستكمله بنفسه، إذ يعلم أنّ هذا

القرآن العظيم هو أعظم كتاب أنزل، وقد اشتمل على كلّ فضائل الكتب السابقة.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):
﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) ﴾.

أي: لو يعلمون ذلك ما كفروا. فقد ترك في الكلام جواب «لو» وبقي مكانه فارغاً، ليستكمله المخاطب أو القارىء المتدبّر بنفسه.

ووصفُهم بالكفر مع تلويمهم عليه في السياق وترتيب صور العقاب عليه يومىء إلى ما يملأ هذا الفراغ في الكلام بالجواب المناسب.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت. وجعلوا الله شركاء... (٣٣) ﴾.

أي: أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت كشركائهم الذين لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضرّاً، أو يجلبوا لأنفسهم نفعاً!

فقد تُرك التصريح بهذا، وأبقي مكانه في النصّ فارغاً لأمرين:

الأول: ليستكمله المخاطب أو القارىء المتدبر بنفسه.
الثاني: لعدم استحقاق شركائهم الذكر والمقارنة بالله الخالق الحكيم، الذي هو قائم على كلّ نفس بما كسبت.

* * * *

سادس عشر: لفت النظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبّه لها الذّهن العادي من أوّل وهلة.

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام لفت النظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبّه لها الذهن العاديّ من أوّل وهلة، لكنّه إذا لفت نظره إليها، أو انتبه لها بنفسه أعجب بها، وربّما أحسّ أنّه امتلك أمراً طريفاً لم يكن يخطر على باله.

ومن أمثلة هذا قول الرسول (ﷺ) في الحديث الصحيح:

«ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه»

وقوله (ﷺ) في الحديث الصحيح:

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وقوله (ﷺ) في الحديث الصحيح:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإنّ ذلك نصره».

فنبّه الرسول (ﷺ) في هذه الأقوال على أفكار طريفة قلّما يتنبه إليها الذهن العادي، وقلّما تخطر على البال، لا سيما ما جاء في بيان نصر الظالم، فمن المثير للاستغراب دعوة الرسول (ﷺ) إلى نصرة إخواننا الظالمين، لكن من المريح والمثير للإعجاب تفسير ذلك بحجزهم عن الظلم، وكفّهم عن ممارسته والقيام به، لئلا يوقعهم في المهالك.

ومن الأمثلة أيضاً قول المتنبي:

يا من يعزّ علينا أن نفارقكم وجدانُنا كلَّ شيء بعدكم عدمُ

إنّ صدر هذا البيت يشتمل على معنى مبذول، يتداوله الناس، وتستعمله الخاصة والعامة.

لكن لما جاء عجز البيت: «وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم».

يرقى الكلام ارتقاءً عالياً، إذ جعل حيازته لكل شيء بعد مفارقة ممدوحه عدماً أو بمثابة العدم، وهذا معنى دقيق قلّما يخطر على البال، فندرة خطوره على البال لدى معظم الناس أغلى قيمته الأدبية.

ونظير ذلك قوله في القصيدة نفسها:

إن كان سرّكُمُو ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُو أَلَمُ

فالفكرة التي تتبادر إلى كلّ الأذهان ، أن يقول المحبّ لمحبوبه: إنني أصبر على ألم الجرح الذي يسرُّك، لأنها هي التي تعبّر عن واقع حال معظم المحبين الصادقين في حبّهم، لكنّ فكرة انعدام وجود الألم كلّياً، بتأثير سرور المحبّ بما يُسَرُّ به محبوبه فكرةٌ تقلّ خطوراً على البال، لأنها نادرة الوجود في الواقع، فاكتسب النص بذلك إضافة جمالية أغلى قيمته الأدبية.

* * *

سابع عشر: تصوير الواقع بالصورة المتخيلة منه لدى مشاهدته.

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تصوير الواقع بالصورة المتخيَّلة منه لدى مشاهدته، ولو في بعض الأحيان، أو في بعض اللمحات.

ففي هذا التصوير عنصر المبالغة الخيالية في الدلالة على الحقيقة.

وفيه أيضاً التأثير النفسيّ على السامع أو القارىء، إذْ يُرسم له في التعبير الكلامي مثل ما أحسّ هو به، دون أن يُعبِّر عنه، أو دون أن يستطيع التعبير عنه، أو جاءه أمر طريف حلوٌ كان غافلاً عنه، فلّما نُبّه عليه أعجبه فتمثّل له في الخيال، ورأى أنه كان ينبغي له أن يتخيله.

وأستطيع أن أمثل لهذا العنصر بما يلي:

١ ـ بقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ فسالت أودية بقَدَرها. . (١٧) ﴾.

٢ ـ وبقول الشاعر:

«وسالت بأعناق المطي الأباطح».

٣ ـ وبقول الله لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي أبى أن يركب معه في السفينة، كما قصَّ تعالى علينا في سورة (هود ١١):

﴿إنّه ليس من أهْلِكَ. إنّه عملٌ غيُر صالحٍ (٤٦) ﴾.

فالصورة التي قد تتركز في الخيال لدى مشاهدة إنسان ليس له عمل صالح، أنه كتلة من عمل غير صالح، وتنعدم الذات وسائر أعمالها، ولا يبقى في التخيل إلا صورة العمل غير الصالح.

ومن كان كذلك فهو لا يستحقّ الشفقة عليه.

٤ ـ وبقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وترى الأرض هامدةً، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّتْ ورَبَتْ، وأنبَتَتْ من كل زَوْجٍ بهيجٍ (٥) ﴾.

هامدة: أي ميتة يابسة.

رَبَت: أي نمت وانتفخت.

بهيج: أي حسن يسرّ الناظرين.

ففِ هذا النصّ أسند الاهتزاز إلى الأرض مع أنّه للنبات، لأن الناظر إلى الأرض المنبتة إذا مرّت عليها الرياح فهزّت نباتها، قد يتخيّل أنّ الأرض هي التي تهتّز، مع أن المهتّز هو ما نبت فيها.

وكذلك «رَبَت» أي ربا النبات فيها.

* * *

ثامن عشر: حسن تركيب الجمل وانتقاء المفردات ذات الدلالة الأدقّ

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام حسن تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على وفق نَسَق متلائم لا تنافر فيه ولا تشاكس، كتنظيم حبّات عقد اللؤلؤ من قبل منظم ماهر، وكتنظيم الجواهر على حلية نفيسة، من قبل صائغ بارع، مع العناية بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبّه عليها علماء المعاني.

وكذلك انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأحلى وأدّق دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عامّ، وحال المخاطبين به.

والقرآن الكريم كلّه هو النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول (ﷺ)، ثم من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء.

* * *

تاسع عشر: احترام المخاطب بالتأدب معه ورعاية مشاعره

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترام المخاطب بالتأدّب معه، ورعاية مشاعره، وذلك بالابتعاد عمّا يشمئزّ منه، وبعدم مواجهته بالألفاظ الصريحة الدالة على المستقذرات، أو المعاني التي يجمل التسترّ بها مع أنها معلومة.

والأديب ذو الحسّ المرهف يلقي على المعاني التي لا يجمل التصريح بها ستراً كلاميًّا، إذ يدلّ عليها بالكنايات والإشارات لتلميحات ومعاريض الألفاظ.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من

الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صَعِيداً طيِّباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، إنّ الله كان عفوّا غفوراً (٤٣) ﴾.

من الغائط: أي من المكان المنخفض الذي يذهب إليه عادةً من يريد قضاء حاجة الإنسان، والتعبير بقوله تعالى: ﴿ أو جاء أحدُ منكم من الغائط ﴾ فيه كناية عن قضاء الحاجة الناقضة للوضوء.

أو لامستم النساء: فيه كناية عن الجماع وهو عمل يجب ستره وإن كان مباحاً، فحسن في الكلام ستره بالكناية.

٢ ـ قول أم المؤمنين عائشة عن حالها مع الرسول في عدم النظر إلى العورات: «ما رأيت منه ولا رأى مني» تعني العورة المغلَّظة.

* * *

عشرون: تخصيص بعض المترادفات بما فيه خير وبعضها بما فيه شرّ

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تخصيص بعض المترادفات ذات الدلالة اللغوية العامة بما فيه خير ورحمة، وتخصيص بعضها الآخر بما فيه شرّ وعذاب.

وهذا من الأدب القرآني الرفيع، ومنه ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ من يَشْفع شفاعة حسنة يكن **له نصيب** منها، ومن يشفع شفاعة سيّئة يكن **له كِفْلٌ** منها. وكان الله على كلّ شيء مُقِيتاً (٨٥) ﴾.

ففي جانب الشفاعة الحسنة استعملت كلمة «نصيب» وفي جانب الشفاعة السيئة استعملت كلمة «كِفْل» مع أنَّ الكفل والنصيب مترادفان في اللّغة، ويستعملان في الخير والشر، والرحمة والعذاب،

ولكنّ تباين النصيبين في الحقيقة اقتضى في أدب اللفظ التغاير في الكلمات الدالّة على المراد.

فالتغيير هنا جاء بتغيير اللفظة كلّها مادّة وصيغة.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢)

﴿ لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت... (٢٨٦) ﴾.

فاختار النصّ كلمة «كسبت» لجانب العمل الصالح، واختار كلمة «اكتسبت» لجانب العمل السّيء، مع أنَّ كلًّا من اللفظين يستعمل في كلٍّ من المعنيين، ولكنْ لما اجتمع المعنيان في نصٍّ واحد مفرّقين في موضعين منه، دعا الجمال الأدبي أن يوجد تفريق في اللّفظين، ولو في الصيغة فقط مع اتحاد مادة الكلمة.

وفي آيات أخرى اجتمع المعنيان، ولكن غير مفرّقين في موضعين من النصّ، او انفرد كلٌّ منهما في النصّ بنفسه، فجاء التعبير تارة بكسب في العمل الصالح والعمل السّيء، أو في أحدهما، وتارة باكتسب فيهما أيضاً أو في أحدهما.

والمتدبّر للقرآن عندئذ لا يلحظ في صيغة اكتسب أكثر من زيادة معنى التكلّف، وأنّ العمل قد كان فيه عطاءٌ يزيد على العطاء في العمل العادي.

٣ ـ ومن ذلك ما جاء في القرآن من تخصيص لفظة «الريح» غالباً في التي تأتي بعذاب وهلاك. وتخصيص لفظة «الرياح» في التي تأتي بنعمة ورزق وخير.

فالتفريق هنا جاء بتغيير اللفظة بين الإفراد والجمع، ومنه قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وهو الذي يرسل الرِّياح بُشْراً بين يَدَيْ رحمته (٥٧) ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الاحقاف ٤٦):

﴿بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ (٢٤) ﴾.

وقد يكون للريح الواحدة أثر في التدمير والعـذاب، بحسب تواترها وشدّتها، أمّا التي تأتي بُشْراً بين يدي رحمة الله، فإنّها قد تكون أنواعاً من الرياح تحمل الخير ويدفع الله شرّ بعضها ببعض. والله أعلم.



الفصل الأخير

١ ـ اقتراح حول تقسيم الكلام من ناحية الشكل.

٢ ـ توصيات الندوة العالميَّة للأدب الاسلامي



(١)

اقتراح حول تقسيم الكلام من ناحية الشكل

كثر الجدل بين الأدباء لا سيما الشعراء منهم حول ما يطلق عليه اسم «الشعر الحرّ» أو «الشعر المنثور» أو نحو ذلك. وهل نعتبر هذا اللون شعراً، أو لا نعتبره شعراً لخروجه على كلّ أو بعض ضوابط الوزن والقافية في عمود الشعر العربي التقليدي؟.

وكتب كثير من الأدباء المعاصرين، والمتأدِّبين، والمتشاعرين، والغاوين، في هذا اللّون الذي يسمّونه «الشعر الحرّ» وغدا واقعاً مكتوباً، ومقروءاً، وله معجبون به، وله أنصار ينصرون طريقته، ولو جمعنا ما كتب منه لكان مجلدات ذوات عدد.

وفي هذا الحشد الكبير مما كتب على هذه الطريقة يلاحظ الأدباء النقَّاد أنّ أكثره غَثٌّ ليس له قيمة أدبية، ولكن فيه ما هو حسن حلو، وفيه قليل جدّاً مما هو جميل ورائع تتذوّقه النفوس الأديبة، وترتاح له الأسماع، إذ تلتقي فيه الكلمة الحلوة، والفكرة البديعة، والأسلوب المؤثر.

ولقد رأيت أن عمود الشعر العربي ليس تكليفاً دينيًا يجب التزامه، وأنّ التجديد والابتكار في هذا المجال ليس كلّه أمراً قبيحاً في الذوق يجب اجتنابه.

فمن شاء أن يلتزم طريقة الشعر العربي التقليدي فليفعل، ومن

شاء أن يجدّد ويبتكر فليفعل، ولكن عليه أن يقدّم للأدب شيئاً جميلاً، كلاماً حلواً، وأفكاراً بديعة، وأسلوباً مؤثراً يعجب الذوق الأدبي، وعليه أن لا يُسفّ ولا يتبذّل، ولا يقدّم تفاهات ويسميّها أدباً.

ويبقى الإشكال الوحيد هو هل يصحّ أن نسمّي الكلام الذي يخرج عن كلّ أو بعض ضوابط الشعر العربي التقليدي الذي تواضعت عليه أجيال الشعوب العربية السابقة شعراً، أو لا يصحّ أن نسميّه شعراً؟.

وإذا لم نسمّه شعراً، فهل نسمّيه نثراً، أو فنّاً من فنون النثر، مع أنّ له طريقة غير طريقة النثر المرسل، المعروف لدى أجيال الشعوب العربية السابقة.

وقد تأملت في الكلام فوجدت أنّه يمكن تصنيفه، ويمكن تقسيمه من ناحية الشكل إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

هو الكلام الذي التزم فيه عمود الشعر العربي وزناً وطريقة، ويدخل فيه القصيدة، والرباعيات، والخماسيات، والمثلّث، والمشطّر، وبعض أنواع الموشّحات الأندلسية التي تنسجم مع عمود الشعر العربي، مع ما فيها من تجديد.

وهذا الكلام نخصّه بما أطلق عليه في العربية اسم «الشعر».

القسم الثاني:

هو الكلام الذي التزم فيه أيّ وزنٍ يخضع لنسق موسيقي مقبول في الأذواق الأدبية العربية السليمة، والتزمت فيه قافية ما، على

أية طريقة يقبلها الذوق الأدبي، دون التزام طريقة الشعر العربي التقليدي وضوابطه.

وتدخل في هذا القسم كلّ الأنواع التي يمكن أن تجدّ، ولو جمعت المقطوعة الواحدة، أو الوحدة الكلامية عدّة أوزان، بشرط التناسق بينها، وعدم نُفْرة الذوق الموسيقي من اجتماعها. ولو جمعت كذلك عدّة قوافٍ، بشرط أن تكون ذات نسق جمالي مقبولٍ في الذوق الأدبي.

ويقبل في هذا القسم كلّ كلامٍ يكون رضيًّا لدى الآذان الذوّاقة للأوزان الموسيقية، وذا نسق حلو في قوافيه، مهما تنوعت، وأن تكون المعاني مقبولة تحت عنوان الأدب بوجه عامّ، وهذا شرط مطلوب في كلّ أقسام الكلام الأدبي.

ويمكن أن نصطلح على تسمية هذا القسم باسم: «النظير» باعتبار أنه نظير الشعر العربي التقليدي وشبيهه، بفارق عدم التزام كلّ ضوابطه في الوزن والقافية.

وبهذا الاصطلاح ننهي الجدل والخلاف والخصام.

القسم الثالث:

هو الكلام المتحرّر من جميع القيود الشكليّة، عدا ضوابط العربية في كلماتها ومعانيها، وفي نحوها وصرفها، وفي طرائق كلامها.

وهذا القسم من الكلام هو الذي لا تلتزم فيه طريقة معينة، لا من جهة الوزن، ولا من جهة توازن الجمل، ولا من جهة تناظرها، ولا من أيّة جهة شكلية أخرى.

ويمكن أن نخصّ «النثر» بهذا القسم من الكلام.

القسم الرابع:

هو الكلام الذي التزمت فيه طريقة ما من ناحية الشكل، عدا طريقتي القسم الأول «الشعر» والقسم الثاني «النظير».

كأن يلتزم فيه السجع مثلاً، أو يلتزم فيه توازن الجمل وتناظرها، أو يلتزم فيه تكرير جملة بعينها في آخر كلّ وحدة كلامية، أو غير ذلك ممّا لا حصر له.

ويمكن أن نصطلح على تسمية هذا القسم الرابع باسم «النثير».

فهو نثر لا وزن له، ولكنّه يخضع لنسق خاص، اعتني فيه برصف الكلمات والجمل وتنظيمها، ولم ترسل إرسالاً مطلقاً، فاستحقّ أن يفرد باسم «النثير».

* * *

هذا هو التقسيم الذي أقترحه على الأدباء والشعراء للكلام، وأودّ أن أشير هنا إلى أنني لم ألتفت في هذا إلى التسميات التي تطلق هنا وهناك على هذه الألوان المستحدثة.

وفي ظني أننا بهذا التقسيم الاصطلاحي نقطع الجدل والخصومات حول الشكليات، ونهتمّ بمضمون الكلام الأدبي الذي يقل الخلاف والجدال حوله، فنقبل في الأدب العربي كلّ كلام جميل يقبله الذوق العربي السليم، مصنّفاً في صنفه، وموضوعاً في قسمه، وله اسم اصطلاحيٌّ يطلق عليه.

فحين يرفض الأدباء والشعراء الملتزمون بطريقة الشعر العربي التقليدي في شكليّاته، أن يعتبروا من الشعر الكلام الذي له وزن ما، وقافية ما، على غير طريقة عمود الشعر العربي التقليدي، فإنّهم

قد يقبلون في أذواقهم ما كان منه حلواً مستساغاً، ولا يرفضون أن نضع له اسماً خاصّاً، وليكن هذا الاسم الخاص هو لفظة «النظير». باعتبار أنه نظير الشعر التقليدي وشبيهه كما سبق آنفاً، وذلك من جهة أنّ له وزناً ما، وقافية ما، ولكنهما غير خاضعين لكل قيود عمود الشعر العربي التقليدي.

ويمكن أن أضرب مثلاً للنظير بوحدة كلامية أقول فيها ما يلي:

هذا نداءْ. يا أيها الإنسانُ قُمْ لبِّ النداءْ
من السماءْ. يدعوكَ أنْ تحيا حياة السُّعداءْ.
في هَذِهِ الأولى. مرحلةِ الكَدْحِ
مرحلةٍ مُعدَّة من أجل الابتلاءْ
مرحلةٍ معدَّة للسّعْي والْبَلاَءْ

إنْ تَسْمَع النداءْ
وتجُب الدُّعَاءْ
في هذه الدنيا. مرحلةِ الكَدْحِ
تَغْنَمْ بها اللّذّةَ في العَنَاءْ
والأَمَلَ الجميلَ والصَّفَاءْ
وتَغْرِسِ الخيراتِ باعْتِنَاءْ

إنْ تَسْمع النداءْ
وتجُب الدُّعَاءْ
تُعِدَّ للأخرىٰ. صحيفةَ الرِّبْحِ

صَحِيفَةَ النّجاةِ مِنْ شَقَاءْ
صَحِيفَةَ الْفَوْزِ بمَا تَشَاءْ
من النعيم الخَالِدِ المْعْطاء
في جَنَّةٍ واسِعَةِ الأَرْجَاءْ
بَاذِخَةِ النّعِيمِ والهَنَاءْ

يا دَعْوَةَ السماءْ
حُيِّيت من نِداءْ
يا دَعوةً عُظْمىٰ طَيِّبَةَ النَّفْحِ
لِلنّاس في عالَمِ الابْتِلاءْ
تُخْرِجُنَا من لَيْلَةٍ لَيْلاءْ
إلى صباحٍ باسم الضِّيَاءْ

يا دعوةً فُضْلىٰ جَليلَةَ النُّصْحِ
تَدْعُو إلى الحُسْنىٰ والفوزِ والنُّجْحِ
لِنَقْطفَ الحُسْنا
واللَّذَّةَ الأَسْنىٰ من بَسْمَةِ الصُّبْحِ

* * *

وأضرب مثلاً للقسم الرابع «النّثير» بمثل المقامة «التبريزية» من مقامات الحريري، (المقامة الأربعون) التي يقول فيها:

«أَزْمعتُ التبريزَ مِنْ تَبْريز. حيَن نَبَتْ بالذليل والعزيز. وخَلَتْ من المُجير والمُجيزْ. فبينا أنا في إعداد الأُهْبَة. وارتيادِ الصُّحْبَةَ. ألفيتُ بها أبا زَيدٍ السروجي مُلْتفاً بكساء. ومُحْتفًّا بنساء. فسألْتُه عن خَطْبِهِ. وإلى أين يُسْرُبُ مع سِرْبه...»

إلى آخر المقامة.

فقد التزم فيها وفي سائر مقاماته بنسق خاصّ فيه السَّجْع، وتناظر الجمل، دون التزام الوزن.

وأضرب مثلاً لهذا القسم أيضاً بترنيمة الزميل الدكتور عبد البصير عبد الله حسين، المنشورة في مجلة رسالة المسجد لرابطة العالم الإسلامي (العدد الرابع من السنة الرابعة الصادر في ربيع الأول سنة

١٤٠١ هجرية) بعنوان:

«ترنيمة من بدر الكبرى إلى بدر الأخرى . يا خيل **الله** اركبي»

إذ يقول فيها:

«خيل الله مسرجة ملجمة . . .
تنظر فرسان الغد القادمين من بعيد . .
تتوهّجُ قلوبهم بوقدة الإيمان . .
وتتضوّأ عيونهم بأشعّة القرآن . .
وتعمرُ أسماعهم أهازيج بَدْرٍ وعمّوريّة وحطّين . .
وتهدهدُ مشاعرهم هُتافات عمرٍو وخالدٍ وصلاح الدين . .

* * *

خيلُ اللّهِ مُسْرَجة ملجمة . . .
تتحرّق ظهورُها إلى الفرسان . .
وتتلَظّىٰ قُلُوبُها إلى الميدان . . .
مرابطة في مسالحِ الْقَلَقْ . . .
تدقّ الأرض بأقدامها غيظاً . .
وتقدح الشّرر من حوافرها حِقْداً
وتنفث الدخان من مناخرها مَوْجدة . . .
بأسها شديد . .
وعزمها حديد . .
تَوّاقَةٌ إلى يوم الفصل . . .
وما أدراك ما يومُ الفصل . . . ؟
يوم تقتحم إلى النصرِ جاحِم الأَهْوَالْ . . .
وتدفعُ إلى الْفَرِّ جَامحَ الأبطال . . .
لا تَشَكّىٰ شَكَاةَ فَرسِ عَنْترَة . . .

ولا تَألَّمُ أَلَمَ حِصَانِ أبي الطّيبْ. . .
ولكنهّا تنفذ كالإعصار نَفَاذَ جواد عُقْبَة. .

* * *

إلى آخر الترنيمة، وهي وحدة كلامية حلوة، فيها رشاقة، وأدب، وفكرة ممتازة، والتزم فيها كاتبها بنسق خاصّ، دون التزام وزن وقافية.

ولست بحاجة إلى أن أضرب أمثلة للشعر العربي التقليدي، ولا للنثر، فهما معروفان ومتميّزان.

وإذ أقدّم هذا الاقتراح أرجو أن يقبله أهل الرأي والحكمة من أدباء العربية وشعرائها.

وقد نشرت هذا الاقتراح في صحيفة «الندوة» السعودية التي تصدر بمكة المكرمة، وذلك في العدد (٦٨٥٤) الصادر يوم الاثنين **٢٣** من ذي القعدة **١٤٠١** هجرية. ودعوت فيه الأدباء والشعراء إلى مناقشته مؤيّدين أو معارضين.

(٢)

توصيات الندوة العالمية للأدب الإسلامي

المنعقدة في يوم الجمعة والسبت والأحد ١١ و١٢ و١٣ جمادى الثانية ١٤٠١ هـ الموافق ١٧ و١٨ و١٩ نيسان ١٩٨١م في قاعات دار العلوم ـ لندوة العلماء ـ لكهنؤ ـ الهند.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، انعقدت الندوة العالمية للأدب الإسلامي في دار العلوم لندوة العلماء بلكهنئو في الهند، من الحادي عشر إلى الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ ومن ١٧ إلى ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٨١ م بدعوة من دار العلوم لندوة العلماء في لكهنؤ.

ويتوجه أعضاء الندوة العالمية للأدب الإسلامي إلى سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي بجزيل التقدير وعظيم الإجلال على مبادرته إلى الدعوة لهذه الندوة وإبراز أهمية الأدب الإسلامي، وهم يشكرونه ويشكرون أعضاء دار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ على كريم دعوتهم وحسن ضيافتهم وجميل رعايتهم، ويسألون الله عز وجل أن يمدَّ في عمر الشيخ المفكر المربيِّ الجليل وأن يحفظ عليه عافيته ليواصل جهوده المباركة في سبيل الإسلام والمسلمين.

وينتهز أعضاء الندوة الفرصة للإشادة بجهود دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ في الحفاظ على الشخصية الإسلامية للأجيال المتعاقبة لأبناء المسلمين في الهند، ونشر دعوة الإسلام وعلومه ولغته العربية، كما يشيدون بجهود الجامعات والمؤسسات التعليمية الإسلامية الأخرى بالهند في هذا المضمار، وهم يهيبون بالدول الإسلامية والعربية والمؤسسات العلمية لمؤازرة دار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ وسائر المؤسسات التعليمية الإسلامية في الهند في جهودها لتعليم الإسلام واللغة العربية والعمل لتوسيع نشاطها، وزيادة إمكاناتها، ورفع كفائتها.

ولقد استمع أعضاء الندوة في جلسات عمل متعاقبة في الصباح والمساء منذ مساء الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة إلى مساء الأحد الثالث عشر منه، استمعوا إلى البحوث المقدمة من أعضاء الندوة وناقشوا أصحابها، وهم يتقدمون بالتوصيات التالية:

أولاً في مجال البحث في الأدب الإسلامي وتشجيعه بوجه عام:

١ ـ دعوة الباحثين إلى إبراز مفهوم الأدب الإسلامي وإيضاح موقف الإسلام في الأدب، ومكان الأدب في بناء الإسلام للفكر والمجتمع.

٢ ـ دعوة الباحثين إلى الكتابة في تاريخ الأدب العربي وفقاً للنظرة الإسلامية الصحيحة، وعرض تاريخ الأدب الإسلامي وإبراز المفهوم الإسلامي للنقد.

٣ ـ بذل الجهود لإخراج دليل لمكتبة الأدب الإسلامي المكتوب بالعربية، وبلغات الشعوب الإسلامية الأخرى، وموالاة إصدار النشرات المكتبية، البيليوغرافية، الدورية لمتابعة الجديد في هذا المجال.

٤ ـ الدعوة إلى الاهتمام بالأدب الإسلامي المعاصر والإعلام به وعرضه ونقده موضوعياً والعمل على تشجيعه ونشره بكل الوسائل الممكنة.

٥ ـ حث المؤسسات التعليمية والثقافية حكومية وشعبية على تشجيع ذوي الطاقات المبدعة، وتوجيهها الوجهة الإسلامية، وتنظيم المسابقات لكتابة القصص والمسرحيات والمسلسلات التي ترتكز إلى القيم الإسلامية وتقديم الجوائز السخية للانتاج الفائز ونشره.

٦ ـ إنشاء أمانة دائمة لندوة الأدب الإسلامي، والتقدّم بالرجاء إلى دار العلوم نَدْوة العلماء لقبول أن تكون مقراً لها، وتتولى هذه الأمانة متابعة قرارات هذه الندوة وما يعقبها من ندوات، كما تضطلع بتنظيم الندوات المتوالية على فترات دورية مناسبة في مختلف البلدان الإسلامية، والإهابة بكل المؤسسات العلمية والثقافية والأدبية، في هذه البلدان للمؤازرة بكل الامكانات المتاحة في إقامة هذه الندوات الدورية للأدب الإسلامي.

ثانياً ـ في مجال تعليم الأدب الإسلامي:

١ ـ دعوة الجامعات في البلاد الإسلامية وغيرها إلى أن تشتمل خطط الدراسة بها على مقررات في الأدب الإسلامي، تبين مناهجه التفصيلية: مفهومه واتجاهه ومجالاته، وتقدم نماذج صادقة معبرة له، ودعوة هذه الجامعات إلى تشجيع الدارسين في الدراسات العليا على اختيار موضوعات بحوثهم في مجال الأدب الإسلامي.

٢ ـ دعوة الجامعات الإسلامية والعربية لإنشاء مراكز متخصصة للأدب الإسلامي، تخطط للبحث فيه وتنظم الندوات والمؤتمرات لمناقشة قضاياه وتحديد منهج العمل لأجله، وتتعاون هذه الجامعات فيما بينها في هذا المجال، والإهابة باتحاد الجامعات العربية واتحاد

الجامعات الإسلامية للمعاونة في ذلك بكل ما يمكن من صور المعاونة.

٣ ـ دعوة الجامعات في البلاد الإسلامية إلى تدريس آداب الشعوب الإسلامية المقارنة لتعريف الأجيال المسلمة بآداب المسلمين على اختلاف شعوبهم ولغاتهم ولا سيما آدابهم التي تستند إلى القيم الإسلامية.

٤ ـ إعادة النظر في توزيع مقررات الدراسات الأدبية وفي مناهجها التفصيلية بمختلف مراحل التعليم، ومراعاة أن تنمي هذه المقررات والمناهج وعي الناشىء المسلم بقيمه الدينية الأصيلة، وتربِّي فيه الذوق الجمالي السليم، وتكون ملائمة لعمره وحاجاته النفسية والفكرية.

ثالثاً ـ في مجال نشر الأدب الإسلامي وتنسيق جهود الأدباء الإسلاميين:

١ ـ اختيار النماذج الإسلامية الرفيعة من تراثنا وإبراز القيم التي ترتكز إليها، والسِّمات والملامح التي تميزها بحيث تكون هذه النماذج أدباً للنفس كما هي أدب للدرس.

٢ ـ دعوة الأدباء الإسلاميين للإفادة من كل الأشكال الفنية المقبولة ومنها المقالة والقصة والرواية والمسرحية في تقديم الأدب الإسلامي عن طريق مختلف وسائل الإعلام والنشر المتاحة من صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية وغيرها، مع القيام بواجبهم في حراسة قلوب المسلمين وعقولهم من أي انحراف، وإبراز ذاتية الفكر الإسلامي وأصالته، ومن قاعدته ينطلق الأدب.

وتذكير دعاة الإسلام بأن الأدب البليغ هو من الحكمة والموعظة

الحسنة، فعليهم أن لا يغفلوا جمال التعبير والبيان لتتم البلاغة ويعمق التأثير في النفس، ويتسع نطاقه بين الناس، ولا يجوز ترك ساحة الأدب خلواً لتكون مرتعاً لدعاة الفساد والشر، بل لا بد أن يدفع الإسلاميون بحقهم باطل غيرهم، ويكونوا البديل الصالح الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

٣ ـ بذل الجهود لنشر المختار من تراث الأدب الإسلامي ونتاج الأدب الإسلامي الحديث عن طريق دور النشر القائمة ما أمكن ذلك، مع التفكير في إنشاء دار نشر خاصة لهذا الغرض، وإصدار مجلة للأدب الإسلامي والتعاون على تهيئة مجلة «البعث الإسلامي» التي تصدرها دار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ لهذا الأمر.

٤ ـ بذل الجهود في مجال الترجمة لنقل الروائع من أدب الإسلام وفكره من العربية إلى سائر لغات الشعوب الإسلامية، ومن هذه اللغات إلى العربية، ونقل الروائع الإسلامية كافة إلى اللغات الحية الأخرى.

٥ ـ تنبيه أهل الخير من المسلمين إلى تعدُّد مجالات البر، وتعريفهم أن من أفضل القربات إلى الله الانفاق على الدعوة إلى الإسلام ونشر علومه وكتبه ولغته، وتدعيم المؤسسات القائمة على هذه الأمور.

٦ ـ دعوة الأدباء الإسلاميين إلى توثيق الأواصر فيما بينهم وتنسيق جهودهم، ومن خير ما يحقق ذلك إقامة رابطة عالمية لهم يكون من نشاطها تقديم جوائز تقديرية وتشجيعية لأصحاب الأعمال الممتازة في مجال الأدب الإسلامي، وتكون هذه الجوائز سنوياً أو على فترات دورية ملائمة، وتمولها هبات الجهات الحكومية والخاصة والأفراد وسائر الموارد المشروعة.

رابعاً ـ في مجال التربية الإسلامية وأدب الأطفال واليافعين والشباب:

١ ـ التخطيط لاصدار مجموعة من الكتب تبين أصول الإسلام عقيدة وشريعة، وأخلاقاً وتاريخاً لتلبي حاجة الأسرة المسلمة في كل مكان ولا سيما أسر الأقليات المسلمة والمغتربين المسلمين، هذا إلى جانب الإفادة من الوسائل الحديثة لنشر المعرفة مثل الأشرطة المسموعة والمرئية ـ الكيسيت والفيديو ـ في نشر التوجيه الإسلامي والثقافة الإسلامية، وتشجيع المحاولات الرائدة في هذا المجال.

٢ ـ بذل الجهود لإنشاء مدارس إسلامية ذات مستوى متميز وكفاءة عالية في مراكز تجمع المسلمين بالبلاد غير الإسلامية، تعمل على تعليم الإسلام واللغةالعربية بصورة أساسية من جهة، كما تراعي متطلبات النظم القائمة في الدولة التي تقوم فيها المدرسة من جهة أخرى، على أن تشتمل على رياض للأطفال تنشىء أبناء المسلمين على قيم دينهم وتحوطهم بالرعاية الإسلامية منذ نعومة أظفارهم، والإهابة بالدول الإسلامية للمعاونة في ذلك بطاقاتها المادية والبشرية.

٣ ـ العناية بالأدب الإسلامي الموجّه للأطفال واليافعين والشباب في مختلف أشكاله الأدبية من خلال كافة وسائل الأعلام والنشر، وتشجيع الأقلام المبدعة في هذا المجال والعمل على نشر إنتاجها، وحث الأجيال الناشئة في مختلف أعمارها على القراءة والإفادة من الثقافة النافعة بكل وسائلها المتاحة.

خامساً: في مجال نشر اللغة العربية وتعليمها:

١ ـ العمل على نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في كافة أنحاء العالم بوجه عام، وتعزيز مكانة اللغة العربية في سائر الدول الإسلامية بوجه خاص، باعتبارها لغة القرآن ونظراً لوجوب معرفة

المسلم العربية قدر طاقته لتصحيح صلاته، والتعرف على أحكام دينه، وحين تتآزر جهود المسلمين في تعليم اللغة العربية وتعزيز مكانتها بينهم شعوباً وحكومات، فقد يكون قريباً ذلك اليوم الذي تغدو فيه العربية لغتهم العلمية الأدبية الواحدة، ولغة تأليفهم ومؤتمراتهم.

ومن الواجب محاربة الدعوات الهدّامة إلى غلبة اللهجات العربية المحلية على الأدب أو استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية، ومن الواجب كذلك بذل الجهود المتضافرة لعودة اللغات الإسلامية التي كانت تكتب بحروف عربية وانتقلت إلى اللاتينية، عودتها إلى استعمال الحروف العربية في الكتابة، ومن ذلك اللغات التركية، والملايوية، والإندونيسية، والسواحلية.

٢ ـ دراسة أحوال المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية في البلاد الإسلامية وغيرها، والتخطيط لنشر العربية بينهم بمختلف الوسائل، والتعاون على تحقيق هذا الهدف بإقامة جهاز مشترك متخصص، ورصد المنح والجوائز والحوافز المادية والمعنوية التي تشجع على تعلّم العربية، والاعتماد على الوسائل العلمية والتكنولوجية الحديثة في تعليمها ونشرها.

٣ ـ دراسة إمكانات اختيار ألفاظ القرآن الكريم للاستفادة منها في وضع معجم أو كتب لتعلم اللغة العربية من خلال الألفاظ القرآنية والاسترشاد في ذلك بالتجربة الرائدة للأخ الأستاذ عبد الله عباس الندوي في كتابه: «تعلم لغة القرآن».

٤ ـ متابعة الجهود لإنشاء المعاهد المتخصصة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وفي إعداد المعلِّمين في هذا المجال، وتدعيم المعاهد القائمة ورفع كفائتها وتوسيع نطاق خدمتها.

٥ ـ تشجيع زيارة أبناء الأقليات الإسلامية للبلاد الإسلامية والعربية بدعوة من المؤسسات العامة والخاصة كالأجهزة المختصة برعاية الشباب والجمعيات ، لتوثيق روابط هؤلاء الناشئين بالمجتمعات الإسلامية وثقافتها وباللغة العربية، والعناية بإيفاد شباب البلاد الإسلامية في رحلات تنظمها مؤسساتها العامة والخاصة إلى مراكز الأقليات الإسلامية للتعارف بهم ودراسة أحوالهم، وتعزيز الروابط معهم، مع اختيار المشاركين في هذه الرحلات بحيث يكونون صورة طيبة لبلادهم الإسلامية ديناً وسلوكاً وثقافة.

وإن أعضاء الندوة ليهيبون بالمسئولين جميعاً في البلاد الإسلامية بأجهزة الدعوة والتربية والثقافة والإعلام وبالمجامع والمؤسسات العلمية أن يبذلوا كل طاقاتهم في تأييد هذه التوصيات، وتهيئة كل السبل الممكنة لتنفيذها، وإنهم إذ يضعونها تحت نظر كافة الجهات المعنية بهذه المجالات في الدول الإسلامية ليأملون في تضافر الجهود للعمل على تحقيقها.

ومن الله سبحانه وتعالى نستلهم الرشد والعون والتوفيق، ﴿وقُل اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون، وسَتُردُّون إلى عالِمَ الغَيْبِ والشهادَةِ، فينبِّئكم بما كنتم تعملون﴾.

والحمد لله أولاً وآخراً، وبنعمته تتم الصالحات.....

خاتمة

هـذا ما فتـح الله به عليّ في هـذا البحث الذي اشتمـل على تحليلات واستنباطات وإضافات جديدة في الأدب الإسلامي، مع توجيه العناية لاستخدام الأدب في مجالات الدعوة إلى سبيل الله.

وإني أعلم أن هذا البحث يتطلّب بسطاً في الأمثلة من واقع الأدب الإسلامي، مع تحليل لها ونقد، ويتطلّب أيضاً مقارنـات بين الأدب الإسلامي والآداب الأخرى، وفصلاً عن الغزو الفكري الذي يقوم به أعداء الإسلام عن طريق الفنون الأدبية المختلفة.

وأرجو أن تتاح لي الفرصة مرّة أخرى لاستكمال العمل، حتى تبرز قسمات الأدب الإسلامي واضحة جلية.

واللهَ أسأل أن يجزي المشتغلين المعـاصرين بـالأدب الإسلامي خيراً، وأن ينفع بما يقدّمون للأمة الإسلامية من أعمال، وأن يستعملنا جميعاً في خدمة دينه، ورسالة نبيه محمد ﷺ، وفي سائر مراضيه.

والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة　　　　　　　　عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

في ٢٢/ ٦/ ١٤٠١ هجرية.



الفهرس



آثار المؤلف

أ ـ سلسلة (في طريق الإسلام).

١ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها (مجلد كبير).

٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها (مجلدان كبيران).

٣ ـ أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (مجلد متوسط).

ب ـ سلسلة أعداء الإسلام:

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ.

٢ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم.

٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار).

٤ ـ الكيد الأحمر.

٥ ـ غزو في الصميم.

قيد الإعداد.

٦ ـ النفاق والمنافقون.

ج ـ سلسلة (من أدب الدعوة الإسلامية):

١ ـ آمنت بالله (شعر)

٢ ـ ترنيمات إسلامية (شعر).

٣ ـ مبادىء في الأدب والدعوة.

د - كتب متنوعة :

١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة (مجلد متوسط) .

٢ - تفسير سورة الرعد (دراسة أدبية وفكرية ولغوية) .

٣ - روائع من أقوال الرسول ﷺ (دراسة أدبية وفكرية ولغوية) .

٤ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل .

٥ - الأمثال القرآنية .

تطلب جميع هذه الكتب من «دار القلم» دمشق ص ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧ .